الفصل الثالث

السنوسية في مواجهة التمـّدد الإستعماري

الفصل الثالث

السنوسية في مواجهة التمـّدد الإستعماري

- السنوسية في مواجهة التمـّدد الإستعماري

- في مصر
- في تونس
- في الجزائر
- في السودان

- كيف تمركز الإمام المؤسّس

- الزوايا فلسفتها وتنظيمها
- تقرير سلوش عن السنوسية
- التنظيم القيادي للسنوسية

الفصل الثالث

السنوسية في مواجهة التمدّد الإستعماري

من المهمّ الإحاطة بالظروف التي كان السنوسي الكبير يتحرّك ضمن شروطها، والأحداث التي كانت تتناوب العالم الإسلامي وما تنطوي عليه من إرهاصات تُنبيء بمصائر مستقبليّة وشيكة، تدفع بالدّاعية إلى استشراف السُبل لتحقيق النجاح لرسالته في خضمّها. وما ينبغي علينا ان نذهب بعيدا لتتبّع مسار التنافس الإستعماري الأوروبّي على تقاسم أفريقيا وبلدان العالم العربي الإسلامي، بل علينا أن نُلقي نظرة على جارات ليبيا، والتي استعرت على مسرحها حُمّى هذا التنافس؛ فنجدها في الأوضاع الآتي بيانها:

• في مصر

بعد ان أسّس محمد علي باشا دولته القويّة فيها منذ عام١٨٠٥ م. دخل طرفا في صراع القوى في المشرق العربي وشرقي البحر الأبيض وشمالي أفريقيا. فنراه يعرض على فرنسا عام ١٨٢٩ مشروعا لمقايضة النفوذ وتقاسم المناطق، يتمثل في إرسال حملة بقيادة ابنه ابراهيم لإخضاع الجزائر قبل إحتلال فرنسا لها بقليل، وإرجاعها لطاعة تركيا. وهو بذلك يرسّخ نفوذ دولته ويُعلي من شأنها في أعين الأمم، مع المحافظة على علاقات طيبة مع تركيا. وقد قبلت فرنسا العرض رغبة في إنشاء إمبراطورية عربية واسعة تضمّ مصر وسوريا وبلدان الساحل الجنوبي، أي ليبيا وتونس والجزائر، وجميعها كانت منهمكة فيما سمّي بحرب القرصنة البحرية التي خاضتها ضدّ اوروبّا وأمريكا. وكان هدف فرنسا هو أن تدور هذه الإمبراطورية في فلكها، وتكون تابعة لها أمام توسّع النفوذ الإنجليزي في المشرق، إلاّ أن إنجلترا سارعت بالرّفض معاضدة تركيا، التي خشيت من مغبّة طموح محمد علي. وإزاء هذا تراجعت فرنسا وقدّمت حلاّ وسطا يقضي باحتلالها هي للجزائر، وأن تقوم مصر باحتلال طرابلس الغرب (ليبيا) [1] ولكن بريطانيا رفضت هذا العرض أيضا، كما تخلّى عنه محمد علي حتى لا يُظهر مصر الدولة المسلمة، بمظهر الحليفة في

---

1 Alberto Giaccardi – L`AFRICA nelle vicende politiche e diplomatiche ti ıfia agostiniana ص37 – Roma 1938 dell`europa

الإستعمار لدولة مسيحيّة ضدّ دار الخلافة تركيا. فما كان من فرنسا إلا أن تنقذ ما كانت تبنّته منذ زمن طويل، ألا وهو إحتلال الجزائر الذي قامت به إبتداء من يونيو ١٨٣٠ م. ثم توالت أحداث هذا التطاحن. وكان أوّلها ضمّ إبراهيم باشا لفلسطين عام ١٨٣١ م. وانتصار جيشه على القوّات التركية في معركتي بيلان وقونيه، ثم مطالبته بضمّ سوريا وآسيا الصغرى الشرقية وتونس وطرابلس الغرب، وبموجب إتفاقية الصلح في (كوتاهية) رضي محمد علي بالحصول على السودان والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا وأضنه وكريت، محققا بذلك أكبر إمبراطوريّة عربيّة في العصور الحديثة. لكن المؤامرات الدوليّة تحرّكت للقضاء عليها في المهد؛ فتحالفت تركيا مع روسيا ضد محمد علي، وشنّت إنجلترا هجومها على مصر. أمّا فرنسا فبعد أن غنمت الجزائر، لاذت بالصمت واسترضت إنجلترا بأن تركت مصر تسقط فريسة لها. وانتهى هذا المسلسل بقيام إنجلترا بنجدة تركيا، وطاردت قوّات محمد علي في بيروت وسوريا وباقي المنطقة العربية الشرقية، إلى أن قبل بالتنازل على كافة الأراضي التي كانت تشكل تلك الإمبراطورية المصرية. وأصبحت مصر بلدا خاضعا يدفع الجزية للباب العالي، وأصبح محمد علي حاكما على مصر والسودان يجلس على عرش وراثي بلقب خديوي. وطبقا لإتفاقيّة لندن عام ١٨٤١ م فسخت روسيا تحالفها مع تركيا، وفُرض على محمد علي الإنكفاء في هذا الشّريط من وادي النّيل، وحققت إنجلترا نصرها الإستعماري. لكن المخطّط لم ينته عند هذا الحد؛ ففي عام ١٨٥٦ خرج نابوليون الثالث (وهو شارلس لويس إبن أخ الشهير نابوليون بونابرت) بمشروع توسّعي إستعماري جديد، يدعو إلى استيلاء فرنسا على المغرب، وإنجلترا على مصر، وأن تكون طرابلس الغرب من نصيب مملكة بيومونتي، قبل إنجاز الوحدة الإيطالية، (وهي الان مقاطعة عاصمتها تورينو) [٢] وسنلاحظ أن مخطّط دول الإستعمار الأوروبّي في تقاسم أراضي الإمبراطورية العثمانية ما لبث أن تحقق بشكل كامل بسبب ضعف وتهاون تلك الإمبراطورية المتداعية. وبعد وفاة محمد علي باشا عام ١٨٤٩ م. خلفه على التوالي: الخديوي عباس ١٨٤٩ ــ ١٨٥٤ فالخديوي سعيد ١٨٥٤ ــ ١٨٦٣ فالخديوي إسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩.

---

٢ انظر المرجع السابق L,AFRICA ص٤٠ وقد ورد في كتاب الشيخ الطاهر الزاوي ــ جهاد الابطال ــلطبعة الثانية، دار الفتح ــبيروت ص ٢٥ ما يلي "ولما اجتمع نابوليون الثالث وزوج الملكة فيكتوريا في اوربورن سنة ١٨٥٧ واقترح نابوليون إعطاء جزء من طرابلس لحكومة سردينيا، أيقظ فيهم هذا الإقتراح رغبة الإستعمار" ولم يذكر المؤلف وهو شيخ المؤرخين الليبيين، المصدر الذي نقل عنه كما كانت للأسف عادته في معظم نصوصه

وفي عهد هذا الأخير نُفذ مشروع شقّ قناة السويس، الذي دُشّن عام ١٨٦٩ واعتُبر آنئذ أهمّ إنجاز عالمي أحدث تحوّلا نوعيًا في الجغرافيا السياسية واقتصاديات الشرق واوربا، وولد مرحلة من الصراعات الدوليّة كانت مضاعفاتها تؤثر في أحداث المنطقة حتى عهد قريب. ومن المفارقات أن المشروع بدلا من أن يجلب الإزدهار الإقتصادي والقوّة المالية لمصر، فإنه ربطها بعجلة التبعيّة الإستعمارية، لمّا أغرقها في المديونيّة التي تورّط فيها الخديوي إسماعيل. وقد بلغت رقما خرافيا بتقديرات ذلك الزمن، وهو (الفان ومائتان وخمسون مليون فرنك) بعد أن باع المهندس دي ليسيبس المنقذ الفرنسي للمشروع أسهم شركة القناة للخديوي. وقد قدّرها بمائة وست وسبعين الف سهم، رغم أن عدد الأسهم المتعاقد عليها لم يتجاوز أربعا وستين الف سهم. والأنكى من ذلك أن الخديوي حين توهّم الخروج من ضائقة الديون وعرض الأسهم للبيع؛ تردّدت فرنسا، فقامت إنجلترا بشرائها بمبلغ مائة مليون فرنك[٣] بل إن انجلترا بعد أن أوعزت إلى الباب العالي العثماني بخلع الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩، وقمعت ثورة عرابي التي اندلعت ضدّها، أخذت تستخدم جيش مصر للتدخّل والتوسّع في شرقي افريقيا والبحر الأحمر، بما في ذلك قمع الثورة المهديّة في السودان، كما سنوضّح في الصفحات التالية.

- **في تونس**

اما في شمال غربي ليبيا (تونس) فإن الصّراع عليها جرى بين فرنسا وإيطاليا. إذ كانت تحت السيادة العثمانية الإسميّة، و بحكم شبه مستقل يرأسه باي تونس - كما كان الأمر في ليبيا في ظلّ القره ماننلي - غير أن المطامع الإستعمارية لم تستطع ان تكبح جماحها. ففرنسا تظاهرت في البداية بأنها تريد حماية تونس من التدخلات التركية، وهي في الواقع كانت تتوجّس من وقوع تونس في أيدي قوة اوروبيّة أخرى مما سيُفسد عليها خطّة دفاعها واستحواذها الدائم على الجزائر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذت فرنسا تتطلّع إلى تكوين إمبراطورية مغاربيّة تحت هيمنتها المباشرة تطبيقا لسياسة التوسّع الإستعماري في البحر المتوسط بعد عام ١٨٧٠، والتي كان ينادي بها في الجمهورية الثالثة الوزير **jules ferry**. ولا يخفى أن القوّة الاوربية الأخرى المقصودة، هي إيطاليا التي كانت تتربّص بتونس لقربها الشديد من صقليّة، ووجود جالية إيطاليّة كبيرة وافدة إليها من تلك الجزيرة الايطالية. وقد بدأ التطاحن على تونس بين فرنسا وإيطاليا في الفترة من ١٨٥٥ إلى

٣. L,AFRICA مرجع سابق ص ٤٢

١٨٧٨ ، تدخّلت خلالها إنجلترا لنُصرة إيطاليا ضد فرنسا غريمتها في أفريقيا. إلا أن إنجلترا سرعان ما تخلّت عن دعمها في الفترة ما بين ١٨٧٨ الى ١٨٨١، بسبب الأعباء التي بدأت تواجهها في المشرق العربي، بحكم سيطرتها على قبرص عام ١٨٧٨ ، وترسيخ تحكمها في مصر، ثم خوفها من أن تمتلك إيطاليا ضفتين على البحر الأبيض مواجهتين لبعضهما البعض أيّ صقليّة وتونس. وكان من نتائج تلك المناورات أن تنازلت فرنسا لإنجلترا في المشرق، مقابل تعويضها بتونس في المغرب، كما أن ألمانيا تدخّلت هي الأخرى في هذه المناورات، فأيّدت فرنسا أيضا حتى تجعلها تُقلع عن فكرة استعادة مقاطعتي (الألزاس واللورين) على حدودهما المشتركة - وكانتا تحت الحكم الألماني وهما اليوم تابعتان لفرنسا- ولذلك وقفت ضدّ إيطاليا لتُضعف موقفها أمام فرنسا، وبالتالي تُرغمها على الإنضمام إلى (الحلف الثلاثي) بعد إنتهاء لعبة الشطرنج في تونس !

وهكذا خرجت إيطاليا من هذه اللُعبة خالية الوفاض، إذ غدت معزولة في صراعها ضد فرنسا. ونجم عن ذلك خسائر متتالية لحقتها حتى في الميدان الإقتصادي، مثل خسارتها لمشروع خطّ سكة الحديد تونس العاصمة - حلق الواد (احدى ضواحيها)، إلى أن وقعت اتفاقيّة باردو (ضاحية أخرى للعاصمة التونسيّة) في ١٢ مايو ١٨٨١ ، وذلك بعد إستفحال الأزمة الإقتصادية في البلاد، واثقال الباي محمد الصادق كاهل السكان بالضرائب المجحفة بسبب الديون الفرنسية العائدة لشركة (أرلانجي) التي تورّط فيها إعتبارا من ١٨٦٣. وبسبب الخلاف المالي الذي وقع بين الباي والشركة الفرنسية، تدخّل الجيش الفرنسي وجرّده من قوّة حرسه وسلاحه، وألغى كلّ سلطاته. وبموجب إتفاقيّة باردو أصبحت تونس في حوزة فرنسا. ولمّا كان هذا الإستيلاء على تونس ناعم الملمس واتخذ طابع الحماية، أي ليس إستعمارا فاضحا كما جرى في الجزائر، فقد كانت المقاومة الوطنيّة التونسيّة المسلّحة ضدّه قصيرة وواهنة، تمثلت في انتفاضة علي بن خليفة التي انخرطت فيها قبائل الجنوب التونسي بصفة رئيسية، والتي شتّتها المحتلون الفرنسيّون في اكتوبر ١٨٨١ ، وطاردوا فلولها إلى أن التجأ المجاهدون التونسيّون إلى طرابلس المجاورة، وهو ما وضع حدّا لها. وعقب إتفاقيّة باردو لم تجد إيطاليا مناصّا من أن تنضمّ إلى الحلف الثلاثي وهي صاغرة .

• في الجزائر

وفي جنوب غربي ليبيا (الجزائر)، فبعد أن داهمها الأسطول الفرنسي، وأنزل جنوده في ضاحيتها (سيدي فرج) يوم ١٤ يونيو ١٨٣٠، تمّ احتلالها يوم ٥ يوليو الذي يليه، هبّت الثورة التي قادها الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري تحت راية الجهاد عام ١٨٣٤، وأحرزت الثورة إنتصاراتها الأولية مما أدّى إلى توقيع إتفاق باتنه عام ١٨٣٧، وبموجبه حصل الأمير عبد القادر على الحكم في الشمال الجزائري مع ترسيخ نفوذه فيه. إلاّ أن الغدر الفرنسي انكشف عام ١٨٣٩، واندلعت الحرب مرّة اخرى بعد أن أعلن الوالي الفرنسي الجديد **Bugeaud** شعاره القائل: "حتى نطارد الرعاة،على الجيش أن يتحوّل الى رعاة." وفي عام١٨٤٣ لجأ الأمير عبد القادر إلى المغرب بعد أن أبلى مع جيشه بلاء الأبطال وهناك استنجد بأشقائه المغاربة فعاضدوه في التصدّي للقوّات الفرنسية التي غزت حدود المغرب. وجرت معركة إسلي في صيف ١٨٤٣ والتي انكسر فيها جيش الامير عبد القادر، غير أن سلطان المغرب الأقصى رفض تسليمه للفرنسيين. ولم ينطفيء أوار الثورة فاستمرّت في هيئة حرب عصابات تحت لواء الطريقة الصوفية الدرقاوية بقيادة المرابط بومعزة عام ١٨٤٥، كما أن الامير عبد القادر لم يتقاعس، بل واصل القتال في الفترة من ١٨٤٥ - ١٨٤٧ ، إلاّ أنه لم يستطع التغلّب على الجيوش الفرنسية الجرّارة المسنودة بأسطول حربي ضارب، كما استعمل الفرنسيّون أسلوب (حرق الأرض) فأتلفوا المحاصيل ودمّروا المدن والقرى، فلجأ إلى المغرب، لكن هذه المرّة جرى تطويق جيشه، وقيل إن الخيانة داخل المعسكر المرّاكشي كان لها ضلع في ذلك، ثم اعتقل في طولون سنة ١٨٤٧، إلى أن فكّ أساره نابليون الثالث عام١٨٥٢ ، وأهداه سيفا ونقده مبلغا كبيرا من المال. ومن فرنسا انتقل إلى بروسه في تركيا، حتى إذا وقع زلزال عام ١٨٥٥، أقام في إسطامبول ثم تحوّل الى دمشق، حيث وجد فيها الحظوة والشهرة، والتفّ حوله أعيانها، خاصة عندما اشتعلت الفتنة بين النصارى والدروز، فقام بدور المصلح ووُفّقت جهوده في حماية المسيحيين وإنقاذهم. ثمّ توجّه مرّة أخرى إلى فرنسا لمقابلة نابليون الثالث الذي توثّقت علاقته معه. وعندما نزل بالإسكندريّة عائدا من زيارة للحجاز عام ١٨٦٤، إنضمّ إلى المحفل الماسوني الفرنسي فيها بشكل صريح، مقتنعا بما كانت الماسونيّة تطرحه من شعارات الإستقلال الوطني ومبادي الحريّة والمساواة، يضاف إلى ذلك أنه طمع في أن تسفر الحرب الرّوسيّة العثمانيّة وما أعقبها من معاهدة (سان ستيفانو) ومؤتمر برلين، على تنصيبه أميرا على الشّام.

وعندما تشكلت (جمعيّة الإتحاد والترقي) التركيّة إنتسب إليها، لأنه سار في تيّار التجديد الليبرالي الذي كانت تمثله الجمعيّة ذات البواعث الطورانيّة المعروفة، وسيأتي ذكر إنخراطه في محافل الماسونيّة بسوريا تشبّعا منه بهذه الأفكار والإتجاهات الحداثيّة التي لم تمنع الأمير عبد القادر من مواصلة دراساته واستيعابه للفكر الفلسفي الصوفي، إذ كان من المولعين بفكر محي الدّين بن عربي ونظريّته في (وحدة الوجود) التي ألمحنا إليها. بل إنه ألف كتابا في التصوّف أسماه (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) إقتبس فيه أقوالا من كتاب والده المسمّى (إرشاد المريدين)، وفي آخر سني حياته ألف رسالة في التشريع الإسلامي بعنوان (إرشاد المريدين)، قدّمها كأطروحة للمجمع العلمي الفرنسي، ونال بها شهادة عضو مراسل.

وخلال تلك السنوات التي أمضاها الأمير عبد القادر منغمسا في نشاطات المشرق، استؤنف الكفاح المسلّح ضدّ فرنسا في بلاده الجزائر، فاعتبارا من عام ١٨٥٧ قادته : أوّلا المرابطة (لا لا فاطمة) التي تزعّمت ثورة قبيلة (يني) منضمّة إليها بقيّة القبائل، إلى أن قمعها الحاكم العام **Randon** بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي، بعد أن أسر هذه البطلة الوطنيّةالجبّارة. وثانيا : سنة ١٨٦٤ بقيادة سي سليمان زعيم قبيلة أولاد الشيخ جنوبي الجزائر، والذي منحت له امتيازات وسلطات واسعة من قبل الفرنسيين، غير أنه ثار عليهم، حين استشعر الإهانة من قبل بعض ضبّاطهم. وقد تمكّن القائد العام الفرنسي **Beaupretre** من إخماد ثورته وقتله. لكنّ الثو٠رة إستمرّت بقيادة اخيه سي محمد ومعه المرابط سي الأزرق. ولئن صرع هذان القائدان سنة ١٨٦٤ - ١٨٦٥ ، فإن أتباعهما المعتصمين في الجبال، واصلوا الثورة، ولم يتمكّن الفرنسيّون من اخضاعهم إلا سنة ١٨٨٤ .وثالثا: سنة١٨٧١ بقيادة (المقراني باش أغا قجانه)، وهو من أثرياء قسطنطينه. وقد منحه الفرنسيون هو الآخر سلطات واسعة، غير أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، وإعلان الجمهوريّة فيها الذي هزّ مكانتها، وصدور مرسوم ٢٤ ديسمبر من نفس السنة بمنح يهود الجزائر الجنسيّة الفرنسيّة،كلّ ذلك أغضب المقراني وأثار حفيظته وجعله يعلن عدم طاعته لأيّ يهودي. ولمّا أن داهمت المجاعة الجزائر عام ١٨٦٧ ، أشعل الثورة التي انضمّت تحت لوائها قبائل البلاد جميعها من البحر حتى الصحراء، وواصل زحفه إلى أن اقترب من الجزائر العاصمة. وهنا في ٦ يناير ١٨٧٢ وقعت معركة وادي (سفلة) بالقرب من (أوميل) والتي سقط اثناءها المقراني شهيدا، فخلفه في القيادة أخوه بومرزاق الذي أخذ

يتراجع جنوبا أمام جحافل الفرنسيين. وفي ٢٠ من نفس الشهر وقع أسيرا في أيدي العدوّ قرب (رويسات). وأسفر إخماد الثورة عن قيام السلطات الإستعمارية الفرنسية بإلغاء الإدارة المستقلة التي كانت قبائل الجنوب تمارسها، وفرضت على هذه القبائل دفع نفقات الحرب الباهظة،وانتزعت منها ٤٥٣٠٠٠ هكتارا من أراضيها ليستقرّ فيها المستوطنون. ومالبث هؤلاء أن تكاثر عددهم واجتاحوا البلاد ليلحقوها بفرنسا على النحو المعروف [٤].

• في السودان

والذي يقع جنوب شرقي ليبيا ، فان اهم أحداثه كانت ثورة محمد احمد المهدي المعروفة عام ١٨٨٢ والتي كوّنت جيشا جرّارا والتفت حولها جموع الشعب من جميع اصقاع السودان، وطفقت تحرز الانتصارات الحربية اعتبارا من عام ١٨٨٣ . وقد تمثلت اولا في سقوط الأبيّض، ثم دحرت الجيش الذي جنّده الانجليز من المصريين بقيادة **Hiks** باشا واخضعت دارفور وبحر الغزال في نفس السنة .وفي عام ١٨٨٥ احتل المهدي الخرطوم في معركة ضروس صُرع فيها القائد الانجليزي المعروف غوردون باشا **Gordon**، والذي سبق له قمع ثورة تايبينج في الصين. وبعد وفاة المهدي خلفه السيد عبد الله التعايشي، الذي واصل نهجه في خوض المعارك الحربية. وفي الفترة ما بين ١٨٨٥ - ١٨٩٦ خشيت انجلترا خطر انتشار الثورة المهدية، فكلفت السير ايفلين بارينج **Evelyn Baring** المفوّض السامي على مصر بالاشراف على إعادة تجهيز جيش مجنّد من المصريين، جابه به جيش التعايشي حين حاول غزو مصر خلال ١٨٨٧ ــ ١٨٨٩ ومن ناحية اخرى عقدت انجلترا تحالفا إنجليزيا مصريا إثيوبيا عام ١٨٨٩ ، كوّنت بموجبه جيشا خاضت به معركة (ميتيمّا) ضد جيش المهديين والتي قتل فيها ملك إثيوبيا النجاشي يوحنا. كما أن إيطاليا من جانبها استغلت الإقتتال والتناحر، فاحتلت كسلا عام ١٨٩٤ . وازاء ذلك صمّمت انجلترا ما بين ١٨٩٦ و١٨٩٩ على احتلال السودان إحتلالا كاملا وسافرا، ليس لحماية مستعمرتها مصر تجاه الخطر الداهم فحسب، ولكن ايضا لإعاقة المشروع التوسعي الفرنسي الكبير الذي كان يهدف الى ربط الاتحاد الترابي بين الكونغو والنيل في افريقيا الاستوائية الفرنسية وبين جيبوتي، عن طريق جيش كان يقوده (مارشاند) Marchand، يضاف الى ذلك هزيمة ايطاليا الشنعاء في (عدوه) بالحبشة، وتهديد

---

٤ هذه الفقرة عن ثورات الجزائر اقتبست من كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) -ص ٦٢٥ ــ ٦٢٩ ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤.

المهديين لأريتريا. لهذا كله جهّزت إنجلترا جيشا ضخما بقيادة الجنرال كيتشنر Kitchner الذي هزم جيش المهديين في (توشكي) في ٢٥ اغسطس ١٨٩٦، ومن ثم استولى على دنجله وعطبره، ودخل أم درمان والخرطوم يوم ١٩ سبتمبر١٨٩٨ . وأثناء زحف قوات كيتشنير المتواصل بعد ذلك، التقى مع الجيش الفرنسي بقيادة مارشاند Marchand في (فاشوده) التي سميت فيما بعد (كودوك). وتفاديا للصدام الخطير الذي كان سيقع بين الجيشين جرت على الفور اتصالات على أعلى مستوى بين لندن وباريس تقرّر فيها أن ينسحب الفرنسيون من فاشوده،وهو ما جرى في٤ نوفمبر ١٨٩٨. وفي ٢١ مارس ١٨٩٩ وُقعت الاتفاقية الأنجلو - فرنسية المعروفة والتي قسّمت الممتلكات الافريقية بين الدولتين العظميين، وبذلك اصبح وادي النيل تحت السيادة الانجليزية، وأُطلقت يدُ فرنسا للإستيلاء على افريقيا الوسطى، وهو ما سيقودنا اليه البحث، حين التعرض الى المواجهة الحربية الطويلة بين ليبيا وفرنسا في تشاد بعد ذلك. أما بالنسبة للسودان فقد اعلن الميثاق الانجليزي المصري في القاهرة، انه اصبح تحت الحكم المشترك للإدارتين. ولكن ما ان جاء عام ١٩١٤. حتى فرضت انجلترا حكمها المطلق على مصر فأصبحت محميّة تابعة لها، وبذلك تسنى لها التهام البلدين الشقيقين معا [٥].

كيف تمركز الإمام المؤسّس

هكذا كانت إذن الأوضاع والظروف التي اكتنفت الصراع الإستعماري لتقاسم الاقطار المجاورة لليبيا حين بدأ السنوسي الكبير نشاطه الفعلي لنشر دعوته فيها، وامتدّ بعده في عهد ابنه السيد المهدي. ولمّا أن وجد نفسه وحركته بالقرب من دوّامة الإستيلاء والإحتلال الاستعماريين، آثر الابتعاد حتى لاتجرفه الأنواء، وشرع في البحث عن قاعدة ينطلق منها بمأمن من المخاطر. فالمتتبّع لتحركاته وتنقلاته يلاحظ أنه لم يحسم أمره في البدء أين يحطّ رحاله. إذ بعد مغادرته لمصر توجّه الى سيوه والواحات المحيطة بها، وواصل رحلته الى بنغازي عبر الجبل الاخضر ومنها الى طرابلس التي وصلها عام ١٨٤١ ولكنه لم يطمئن لتواجد السلطة التركية المركزية في المدينتين، فيمّم شطر قابس في تونس مصطحبا زوجته الثانية السيدة خديجة (الحبشية) التي تزوجها في الحجاز والتي وصلت طرابلس بالباخرة قادمة من هناك. وفي قابس ايضا خشي من تواجد النفوذ الفرنسي مما اضطرّه الى الرجوع الى الجبل الاخضر الذي استصوب الأقامة في ربوعه؛ لأن الحكم التركي

---

٥ . L'Africa مرجع سابق ص ٦٧

فيه كان أسميا وكانت طبيعته ومناخه أشبه بموطنه في الجزائر، كما ان التجانس كان يغلب على سكانه من البدو، فهم يتكوّنون من المرابطين والسعادي: (المرابطين)[٦] يتحدّرون من السكان الأصليين من نسل البربر وخليط من البربر والأغريق والعرب القدماء من اوائل الفاتحين؛ والسعادي وهم من قبائل بني سليم الذين هاجروا مع قبائل بني هلال من صعيد مصر في القرن الحادي عشر للميلاد، واستوطنوا ليبيا وتونس والجزائر، اذ قويت شوكة بني سليم في برقة بصفة خاصة. فقاموا من جانبهم بتهجير ابناء عمومتهم من قبائل (أولاد علي) والجوازي والفوايد الى مصر، وذلك بسبب الصراعات التقليديّة على المرعى والمياه، والتي وكانت حروبا دامية ومتقطّعة اشتد رحاها ما بين ١٨١١ – ١٨٣٢ ولم تنته الا عام ١٨٦٥ حين أكرهت آخر فلول أولاد علي على النزوح والتمركز شرقي السلوم. ويروي لنا اوغوستينو [٧] انه نتج عن ذلك النزوح ان قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة والحاسة وهي من السعادي (الحرابي)، قامت باحتلال الاراضي التابعة للفوايد في الجبل الأخضر، وان قبائل المغاربة والعواقير والعبيد والعرفة وهي من السعادي (البراغيث)، استولت على اراضي الجوازي شرقي بنغازي. ثم قام المغاربة بمطاردة القبائل القاطنة غربي بنغازي، وتشتيتهم بعد معركة (علم الزغبة) جنوب شرقي مرسى البريقة عام ١٨٣٢. ومن هناك توسّع المغاربة في السهل الممتد حتى منطقة البحيرات الملحة (السباخ) جنوبي سرت التي عيّن علي الأطيوش رئيس المغاربة مديرا عليها عام ١٨٤٥ م. وفي نفس الوقت أجبر تحالف قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة والحاسة (أولاد علي) على الجلاء نحو الشرق بعد ان استولى العبيدات على أراضيهم في مناطق درنة والبطنان، ومكنوا البراعصة والدرسة من الحصول على مزيد من الأراضي في الجبل الأخضر .

وقد أجمع المؤرّخون أن السنوسي الكبير استطاع عن طريق بثّ دعوته المصالحة بين القبائل بتسوية الثأر ودفن الإحن بينها، مستعملا المواعظ السمحة للإسلام المبسّط، ممّا خلق له شعبيّة في ذلك المجتمع البدوي. وبعض هؤلاء المؤرّخين كشفوا عن عادات ومعتقدات جاهليّة كانت شائعة في ذلك المجتمع استطاع السنوسي الكبير أن يَنهى عنها

---

٦ أبقينا على كلمة (المرابطين) منصوبة، كإسم يُطلقه عليهم أهل البلاد، وللتفريق بينهم وبين الصفة التي يحملها المرابطون المنتسبون الى أصول دينيّة شريفة، على الرغم من انتحالهم جميعهم لنفس الأصل مع وجود تبايناتهم العرقيّة.

٧ Augostino هو المؤرخ الايطالي الذي تخصص في ديموغرافية ليبيا في كتابه سكان برقة – بنغازي ١٩٢٢.

ويقضي عليها. ومن أطرف ما رواه أحمد حسنين الذي تجوّل في المنطقة وعاشر أهلها وتعرّف على شيوخ السنوسيّة، أن مؤسّسها رأى "مسلمي برقة سادرين في غيابات الضلال معرّضين لخطر الإضمحلال السريع من الوجهتين الدينيّة والخلقيّة، فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط. وإنا لنسوق بعض الأمثال لتلك الأعراض التي غيّرت من معالم الدين الحنيف: أسّس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو في الجبل الأخضر شمال برقة ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذي قضى الإسلام بحجّه على كلّ من استطاع اليه سبيلا . وقد أراد مؤسّسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا في أذهان

البدو أن زيارتها تقوم مقام حجّ بيت الله الحرام [٨]. وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان والإنقطاع فيه الى العبادة، فابتدعوا لذلك بدعة هي أن يذهبوا قبل حلول رمضان بأيّام الى واد إسمه وادي زازا، وهو معروف بقوّة رجع الصدى الذي تردّده جوانبه، ثم يصرخون جميعا سائلين: أي وادي زازا أنصوم رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة ، وهي لا لا . ويصوّر من سأل ذلك الوادي أنهم أصبحوا في حلّ من الإفطار فيفطرون غير مقيّدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الأمر صدر اليهم بعدم الصوم. وممّا يذكر أنه في بداية تعاليمه (أي السنوسي) أقيمت الصلاة فدخل المسجد إعرابي إسمه مجرم ووقف في الصفّ الأوّل يصلي لأوّل مرّة، فقرأ الإمام آية (ألم نهلك الأوّلين) فتأخّر الى الصفّ الثاني فقرأ الإمام (ثم نتبعهم الآخرين) فتأخّر مجرم الى الصفّ الأخير فقرأ الإمام (كذلك نفعل بالمجرمين) فخرج مجرم من بين المصلّين يعدو مهرولا الى داره (في صحراء ليبيا) ص ٤٩ – ٥٠ ، فسألته إمرأته وقد رأته مضطربا ما خطبه فقال : ها دوّة الصلا دوّة وعرة، هلك الأوّلين توخّرت، هلك الآخرين توخّرت، نادى بالإسم يا مجرمين عدّيت.!." ثمّ أشار أحمد حسنين الى محاربة الإمام السنوسي لعادة قتل البنات التي كان البدو المتأخّرون يخشون أن تجلب لهم العار [٩] . أمّا الإيطالي سيرّا فقد روى أن من ضمن العادات السيّئة أن البدوي كان يبالغ في إقراء الضيف لدرجة أنه يعرض عليه إحدى نساء العائلة قبل بدء المأدبة، مما يعني اعتبار المرأة متاعا يقدّم كهديّة ! كما نقل ما رواه له أحد شيوخ السنوسيّة (أحمد الموهوب) عن شاب من (واداي) بالسودان التقاه في واحة (الفرافره) يبحث عن والده، فوجد زوجته

---

٨ أشار اليها الصلابي (ص ٧٣) إشارة مختصرة نقلا عن (السنوسي) الكبير للطيّب الأشهب ، الذي لانشكّ في أنه استقاها من رواية أحمد حسنين السابقة لكتابه بثلاثة عقود.

٩ (Italia e Senussia) P.16

المصريّة أرملة فتزوّجها طبقا لعاداتهم، بينما نصحه الموهوب بقوله: "مادام والدك ترك لك فرسا جميلة، كان أولى بك أن تبيعها !" . ولاشكّ أن سيرًا ساق هذه الرواية (وكتابه صدرفي العهد الفاشيستي) من قبيل الهزؤ بأتباع السنوسيّة والتشنيع بشيوخها. فمثل هذه العادات المنتهكة والمهينة لآدميّة المرأة كانت من بقايا الجاهليّة الأولى، وربّما مورست داخل نطاق قبلي ضيّق في فترة ضاربة في القدم، إذ يحدّثنا الرحّالة المعروف أبو سالم العيّاشي المتوفي عام ١٠٩٠ ميلاديّة عند رحلته عبر الأراضي الليبيّة، عن مثل هذه العادات كونها من النوادر حتى في ذلك العهد السحيق، فقد روى في كتابه (الرحلة العيّاشيّة أو ماء الموائد)، يصف سكان الجبل الأخضر في برقة آنذاك: "ونوادر هذا الجبل في رخاء الأدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه **وبيعهم لبناتهم وأخواتهم أشهر من أن يُذكر**" [١٠]. بينما نجد رحّالة آخر وهو محمّد عثمان الحشائشي زار البلاد عام ١٨٥٩ تقريبا (أي بعد ثمانية قرون من رحلة العيّاشي، وفي عهد انتشار السنوسيّة فيها) يعكس الآية في وصفه لحياة وأخلاق هؤلاء السكان، فيقول في كتابه (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب): "وسكان هذا الجبل أعراب بادية لسانهم طليق فصيح بالعربيّة وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيّبة ليّنة معتقدون في شيخهم سيدي محمّد المهدي السنوسي اعتقادا لا تزحزحه الجبال، ويخافون الله ورسوله، أصحاب عبادة، والأمن وعدم الخوف قد ضرب أطنابه بأرضهم. فالغريب والسوّاح عندهم لا يُهضم له جانب ولو كان معه حمول الذهب والفضّة" [١١] . وهكذا يتّضح للقاريء التضليل الذي اعتسفه المؤرّخون الأوربيّون باستغلال عادات عتيقة انقرضت سعيا لتحقيق مآربهم. دون أن يُنقص ذلك طبعا من كون دعوة السنوسيّة قد أصلحت من سلوك أقوام مجتمع بدوي غرق في مهاوي الذكر والرجعيّة. وهو ما أجمع عليه المؤرّخون القدامى والمحدثون، أوربيين كانوا أو عربا، بل إن أحمد حسنين في كتابه "في صحراء ليبيا" المذكور يكرّر الإدّعاءات عن ممارسة هذه العادات البائدة بقوله "وكان في بدو تلك النواحي بقيّة من العادات البربريّة القديمة فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبنّه عليهم من العار. وهذه العادة المرذولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدّم الى مصاف ناشري الدعوة للإسلام." [١٢]

---

١٠ " ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" ص ٢٢٢

١١ المرجع السابق ص ٢٨١

١٢ ص ٥٠.

وأثناء مرور الإمام المؤسّس بمدينة طرابلس عام ١٢٥٧ هجرية (حوالي ١٨٤٠ م) قادما من قابس، نزل ضيفا على عائلة المنتصر في بيت عميدها أحمد المنتصر. وكان الوالي آنذاك هو علي عشقر أو أشقر باشا. ويبدو ان أخبارا كيديّة وصلت إلى الوالي العثماني حول مخاطر تحركات السنوسي الكبير من أحد شيوخ الطرق الصوفية، إلاّ أن مساعي أعيان وعلماء المدينة، واقتناع الوالي بتقوى وغزارة علم السنوسي الكبير وقوّة حجته في السجال الفقهي، جعلت الوالي يطمئن إلى جانبه ويُحسن وفادته بل وان يُصبح أحد المعتنقين لدعوته [١٣] ثم واصل السنوسي الكبير رحلته متوجّها إلى الشرق ومعه بعض أعيان طرابلس ومصراته. وفي سرت استقبل من وجهاء وأعيان برقة خاصة من قبائل العواقير والمغاربة وبنغازي والجبل الأخضر، ثم أقام ضيفا في بنغازي طيلة شهر رمضان على عائلات الكيخيا وبن شتوان وامنينه وغيرها. وقد انتشرت سمعته في انحاء البلاد كأحد الأولياء ذوي الكرامات حسب معتقدات السكان في ذلك الزمان، ورويت عنه عدة حوادث لتأكيد كراماته تلك مثل إسباغ بركاته بالدعاء على شيخ قبيلة العواقير (أبي شنيّف الكزّة) الذي أشرف على الموت لمرض خطير أصابه فشفي في الحال، كما أن الحشائشي ذكر في كتابه روايات من هذا النوع.

الزوايا : فلسفتها وتنظيمها

بعد مجيء السنوسي الكبير الى برقة عام ١٨٤١ م والذي صادف بداية عهد الحكم العثماني الثاني لليبيا؛ أنشأ بعد ثمان سنوات من ذلك التاريخ أوّل زاوية سنوسيّة في الجبل الأخضر في ناحية (سيدي رافع) نسبة إلى وجود قبر الصحابي رويفع بن ثابت الأنصارى فيها، وسمّاها الزاوية البيضاء. وهو الآن أسم مدينة البيضاء إحدى المدن الرئيسية في ليبيا. وقد وصف (دو فيريير) الزاوية بانها: "مونل جميل ذو حجم رباعي مطوّق بجدران مرتفعة بيضاء، ويقع في حلق واد يبعد مسافة أثني كم شرقي قبة سيدي رافع في منطقة قبيلة الحاسة، وعلى مقربة منها يوجد مبنى أصغر حجما ملحقة به مزرعة ومخزن للمحاصيل التي يقوم العرب التابعون للطريقة بجنيها في حقول هذه المزرعة". وفي عام ١٨٤٦ أي بعد ثلاث سنوات من تشييد الزاوية،قام السنوسي بزيارته الثانية لمكة حيث أقام هناك حوالي ثمان سنوات عاد بعدها إلى البيضاء عام ١٨٥٤، وقرّر نقل مقرّه إلى عمق الجنوب في واحة (الجغبوب). ويبرز سببان لذلك: أولهما خشيته من الضغوطات التركية، أذ أرسل إليه السلطان عبد الحميد يدعوه لزيارة اسطانبول، بعد أن أصدر مرسوما يعفي السنوسية من دفع الضرائب كمناورة للتقرّب، جريا على أسلوبه آنذاك في التعامل الودّي

١٣ الصلابي -مرجع سابق ص ٥٩ و٦٠ نقلا عن السنوسي الكبير للطيب الأشهب.

والسخيّ مع تنظيمات الجامعة الإسلامية، خاصة العربية منها في أنحاء إمبراطوريّته، وثانيهما رغبة السلطان في تقوية نفوذه في الأصقاع الجنوبية لليبيا، لأن الجغبوب ذات موقع استراتيجي يتوسط التجمّعات القبليّة في الشرق والغرب، والتي كانت تتنازع دائما فيما بينها [١٤] كما قد يرجع هذا الإهتمام بموقع الجغبوب وتمركز السنوسي الكبير فيها إلى بدأ الإهتمام في الأوساط الإستعمارية الأوربية المتنامي بطرق القوافل التجارية الموصّلة الى موارد القارة الأفريقية، والتخطيط لتقاسم النفوذ بينها في المناطق أو الممتلكات العثمانية منها، كما أطلق عليها.

وكانت الزوايا التي نشرتها الطريقة في كل الانحاء التي وصل اليها ممثلوها وأتباعها، هي المراكز والدعائم التي انطلقت منها ورسّخت دعوتها، وجسّدت الكيان التنظيمي لحكومتها حتى أصبحت (دولة داخل الدولة)، وكأنّها تستلهم بذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الأعتقاد): "إن نظام الدين لا يحصل إلاّ بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصّل اليهما الا بصحة البدن وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والسكن والأقوات والامن، ولعمري من أصبح آمنا في سرّه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. وليس يأمن الانسان على روحه وبدنه ومسكنه وقوته في جميع الأحوال بل في بعضها، فلا ينتظم الدين إلاّ بتحقيق الأمن على هذه المهمّات الضرورية. وإلاّ فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة؛ متى يفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة؟ فإذن إن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين ". وتطبيقا لهذا النهج الذي بزاوج بين الدين والدنيا، كانت الزاوية السنوسية هي نموذج هذا المجتمع الذى سعى إليه مؤسّسها. فقد وصفها الإمام المؤسّس بقوله: "إن الارض تبتهج حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر فيها العمارة وتتسع الإدارة، والعاملون فيها بالزراعة والحرف هم السابقون عند الله على العاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح ". وهناك الكثير من الأقوال الصادرة عنه والتي تحمل نفس المضامين، نقلها المؤرخون للسنوسية. [١٥]

---

١٤ د. س . س . آدامز ص. ٩ - مرجع سابق

١٥ أورد الدجاني في كتابه عن الحركة السنوسية - مرجع سابق - عدّة رسائل خطية منه الى شيوخ وأعيان البلاد صوّرها من دار المحفوظات التاريخية في طرابلس، وكلها تثبت هذا التوجّه لدى مؤسّس الحركة، كما أثبتها الطيب الأشهب في كتابه السنوسي الكبير - مرجع سابق.

الزاوية إذن كانت أسّ التنظيم الذي ارتكزت عليه الطريقة الإخوانية. وهيكل هذا التنظيم بسيط يتلاءم مع الطبيعة البدويّة التي نشأت فيها وحياة الرحّل والرعاة في دواخل البلاد ونواحيها القبلية. وكانت تشيّد في مركز الناحية او وسط نجوع القبيلة وتتكوّن من ثلاثة أقسام: المدرسة أين يقوم الإخوان بالتدريس وتلقين النشأ،وبيت للضيافة مخصّص للزوّار وأيضا لعابري السبيل والمساكين، والذين يستطيعون الإقامة لمدة ثلاثة ايام كضيوف في الأكل والشرب. وحسب الحشائشي تتكوّن الوجبات المقدّمة مجانا من أرز ولحم الجمل في اليوم الاول، معجون القمح والشعير مع المرق واللحم (وهي مجتمعة تعني الأكلة الليبيّة البازين) في اليوم الثاني، ومعجون التمر في اليوم الثالث، وما بعد الأيام الثلاثة على الزوّار ان يتولوا إطعام انفسهم. أمّا القسم الثالث فهو مقرّ إقامة الإخوان الذين يقودهم الشيخ او المقدّم وهو إمام الجماعة، ثم الوكيل وهو المشرف والمسئول الإداري للمنطقة، وفوق الجميع هناك طبعا شيخ الطريقة. هذا التسلسل المبسّط للتنظيم، ولكن المسموع والمطاع من قبل التابعين والسكان، خلق سلطة (ثيوقراطية) لشيخ الطريقة ومقدّم الزاوية تسيّر أمور تلك التجمّعات باتظام دائم. وقد سمع (دوفيريير) قول السكان حين يقسمون: "وحقّ سيدي السنوسي!" مما يدلّ على خضوع ورهبة تعتريهم أزاءه. وروى نفس المؤرّخ أن الأب (أنجلو ماريا دي سانت أجاتا) عميد البعثة التبشيرية لطائفة الفرنشيسكان في طرابلس صادف ان قابل في عام ١٨٤٥ السّنوسي الكبير في مدينة درنة، وكان في زيارة لها، ووصفه بالقول: "رغم ان طريقته كانت في ذلك الوقت في بدايتها، إلا انه أعتُبر شخصيّة جليلة، وكان يُخفي وجهه على الجميع ويضع قناعا كلما خرج من المنزل، وكأنه يريد أن يوحي إلى من يشاهده من البسطاء أن رؤية هالته القدسية هي من المحرّمات". ودوفيريير المذكور والذي عُرف عنه عداؤه للسنوسية بسبب الدوافع السياسية الفرنسية المعروفة، قال عنها: "إن التفكير الأساسي لهذه المؤسّسة يتمثل في الرفض الثلاثي وهو: لا للمدنيّة الغربية! لا للتحديث المؤدّي الى التقدم الذي أدخله الملوك المعاصرون في بعض الاقطار الشرقية! ولا للتيّارات الجديدة التي تهبّ على البلدان التي تظلّلها البركة الألهية! وبناء على ذلك بات من الضروري مراقبة هذه الطريقة عن كثب والتصدّي لانتشارها أينما كان" [١٦].

وفي وصف دوفيريير لزاوية الجغبوب التى زارها في عهد المهدي السنوسي قال عنها " لقد أسّسها السنوسي الكبير عام ١٨٦١ م" . أمّا الصلابي [١٧] فنقل عن دائرة المعارف للبستاني، أن السنوسي الكبير دخل برقة للمرّة الثانية عبر مصر عام ١٨٥٤ م. وأقام في

---

١٦ دو فيريير ص ١٧٦ مرجع سابق.

١٧ ص – ٨٧ مرجع سابق.

الجبل الأخضر في بلدة العزّيات، وهي أطلال قصر قديم رمّمه ولقبه بهذا الأسم، وذلك لمدة عامين ثم تحوّل الى الجغبوب لبناء زاويتها أي حوالي ١٨٥٦ ويتفق هذا مع ما ذكره ماريانو [١٨] من أنه شيّدها حوالي عام ١٨٥٥ م وشرع في بناء خزّانات للمياه وزراعة أشجار الفاكهة. وحتى عام ١٨٧٤م لم يضمّ المنتجع سوى الفقهاء والطلاب والعبيد. وبعد سنتين وُجدت فيها مخازن للأسلحة، كما ازداد عدد البنادق المجلوبة من مصر. وكانت الطريقة تستحوذ على خمسة عشر مدفعا أشتريت من الإسكندرية مع عدد من البنادق والذخيرة، وشوهد العديد من الخيول في أسطبلات الزاوية. أمّا في داخلها فالأرقام تحدّ ثت كالآتي: في عام ١٨٨٠ م قُدّر عدد أفراد حرس سيدي محمد المهدي الخاص (ذوي الأصل الجزائري فقط) بـ ٤٠٠ مجندا. وقد شكلوا عام ١٨٨١ م حاشية ضخمة في الجغبوب إضافة الى من معهم من العبيد - يقارب عددهم ٢٠٠٠ عبدا - ومن بين الجزائريين المقيمين في الزاوية يبرز (بوغندورة) الذي حرّض على العصيان في جلفه بالجزائر عام ١٨٦١ ، كما أقام فيها المراكشيون والطلبة من جميع الأصقاع. وبعد ذلك تناقص عدد الطلاب، كما علمنا من أحد الحجّاج الذي قابلناه في طرابلس عام ١٨٨٣ وكان عائدا من الجغبوب، فقدّر عددهم آنذاك بـ ٧٥٠ طالبا فقط ". ويستطرد دو فريير في وصفه، أن الجغبوب كانت بسبب موقعها الجغرافي "محطة كاد التوقف فيها أن يكون إجباريا لأولئك المؤمنين الذاهبين الى الحج من المغرب والسودان. وهو الأمر الذي حدا بنا (أي بالفرنسيين) إلى منع هذا التدفق الضار، وذلك بتوجيه الحجّاج الجزائريين إلى مكة عن طريق البحر مباشرة " كما ذكر أن عدد سكان واحة الجغبوب تراوح ما بين ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ نسمة متحصّنين فيها كأنهم في قلعة، ويقدّمون خدماتهم وبضائعهم بشكل جماعي. أمّا العبيد فكانوا يجمعون محصول الارض الذي يتم تقاسمه بين الزاوية والأتباع حسب القدرة والجاه والنفوذ والجدارة الشخصية. ونفس النظام كان يتّبع في الزوايا الاخرى الفرعية. غير أن هناك جزءا ثالثا إلزاميا يحوّل من هذه الزوايا إلى الزاوية الأم في الجغبوب أو مقرّ الإمام بالمدينة المنوّرة. كما ذكر دوفيريير أن بالزاوية الأم مكتبة ضخمة تضم ثمانية آلاف كتاب [١٩] واللافت للنظر أن الحشائشي أكد نفس الرقم على الرغم من استبعاد اتصاله بما كتبه المؤرّخون الأوربيّون. أذ يصف الجغبوب "بأنها مونل علمي يجمع فقهاء كبارا بعضهم متخصّص في التفسير وعلم الحساب، وبها أكثر من ثلاثمائة طالب وفدوا اليها من بلدان مختلفة لطلب العلم. وأنه قابل فيها أدباء مرموقين تضاهي أعمالهم شعراء العراق والأندلس، وتحتوي على مكتبة بها أكثر من ثلاثمائة صنف

---

١٨ ص٤٧ مرجع سابق.

١٩ أورد هذا الرقم كل المؤرخين تقريبا وكان أوّلهم الانجليزي بورتون الذي كان متواجدا في الحجاز في صيف ١٨٥٣ حيث ذكر" إن الشهير محمد السنوسي نقل مكتبته التي كانت تربو على ٨٠٠٠ مجلدا من المدينة الى مقرّه في جبل ابي قبيس بمكة" ماريانو ص ٤٦ مرجع سابق.

تتضمن أشهر المؤلفات. فلا يوجد كتاب في العالم لم يسع فقهاء الجغبوب إلى الحصول عليه [٢٠]. وعدّد الحشانشي ما تحتويه بـ ١٢٥ مصنّفا أضاف اليها السنوسي الكبير ٢٥ مصنّفا آخر، وأن بعض علمائها كان يحفظ في الذاكرة مائة الف قصيدة. وكان من بين مدرّسيها الشيخ أحمد الريفي أحد تلاميذ السنوسي الذي اصبح فيما بعد أستاذا لأبنائه، والفلاح مستشار السلطان عبد الحميد وهاشم ومحمد السنّي الذي أوفده السيد المهدي في وقت لاحق إلى كانم وبرنوح ليبلّغ زعيمها رباح إنذار شيخ الطريقة السنوسيّة بضرورة التحالف او اعتباره منشقا [٢١] ".

وإجمالا للقول فان هذه الزوايا انتشرت اينما حلّ مؤسّس الطريقة، ومن خلالها انتشرت الدعوة بشكل واسع حتى أن دوفيريير ذكر " انه في واحة الفرافرة بمصر حيث تمركزت السنوسية منذ عام ١٨٦٠ ، كانت اقلّ من ثلاثة عشر سنة كفيلة بتغيير سلوك السكان وأصول الملكية ؛ فالمزارع غدت اكثر إنتاجا وازداد عام ١٨٧٣ عدد الآبار التي تملكها الطريقة، وأصبح هؤلاء السكان ذوي مشاعر متطرّفة بعد أن كانوا في الماضي يتّصفون بالتسامح الى درجة عدم الإكتراث. وفي عام ١٨٦٩ كان بمقدور المسيحي أن يُنشيء علاقة تعارف مع المجابرة في واحة جالو بكل سهولة، ولكنه عندما عاد عام ١٨٧٩ وجد أولئك الأصدقاء القدامى غلاة متهوّرين. وحتى عام ١٨٥٠ كانت ثروة زاوية مزده التي تقع على تلال طرابلس، تتكوّن من ثمانية فراخ من طير الحمام، كما اشتكى مقدّم الزاوية الى الرحّالة الانجليزي الشهير هاينريش بارت [٢٢] من خمول ولا مبالاة سكان الواحة. ولكن في عام ١٨٦٣ اصبح لهذا المقدّم مركز نفوذ يُحسب حسابه، حتى انه كان يستضيف العائلات الغنية من أولاد سيدي الشيخ الجزائرية الذين لجأوا الى زاويته لأسباب سياسية " وحسب تقديرات دوفيريير المذكور، وُجدت حتى عام ١٨٨٤ في كل أنحاء ليبيا ٦٦ زاوية ؛ منها ٣٨ زاوية في برقة و٢٨ في طرابلس. امّا في بنغازي فقد وُجدت زاويتان والثالثة كانت تحت الإنشاء بأشراف الوكيل التجاري للسنوسيّة آنذاك مفتاح البنّاني. وبالنسبة لوضع الطريقة في مدينة طرابلس ذكر أنه في عام ١٨٧٦ وُجدت ممثليّة سنوسية عامة يديرها محمد بن مصطفى ومحمد بن طاهر، وبعد ذلك أخذ يديرها الهادي

---

٢٠ والواقع أن المؤرّخ الكتّاني في كتابه (فهرس الفهارس والإثبات) سبق الحشانشي في الإشادة بتلهّف السنوسي الكبير على العلم، حيث ذكر :"وكانت له همّة عالية ورغبة عظمى في العلم وجمع الكتب. وكان ينتدب جماعات من طلبته الأنجاب كلّ واحد أو أكثر يوجّهه لجهة بقصد جمع الكتب شراء وانتساخا، وما سمع بمعاصر ألف كتابا في الحديث إلا وكتب له عليه على بعد الديار وطول المسافة" "ليبيا في كتب التاريخ والسير" مرجع سابق ص ٢٩٨

٢١ ماريانو- نفس المصدر والصفحة وسيرد في الفصول القادمة تحقيق عن رباح وعائلة السني ودورهم في الصراع ضدّ فرنسا في تشاد.

٢٢ هذا خطأ لأنه ألماني ولم يكن إنجليزيا

المبارك من مدينة مرّاكش. وكانت هذه الإدارة على هيئة حكومة أو دولة، فالقائمون عليها كانوا يلقبون بالوزراء. وفي تلك السنة كان الوزير الأول هو سيدي علي عبد المولى من صفاقس التونسية، والوزير الثاني كان سيدي عمران (لعله عمران السّكوري) من بلدة زليطن، وكان المشرف على الدروس الفقهيّة سيدي محمد الشريف أخ السيد المهدي، أمّا إمام الجامع الكبير فقد كان سيدي محمد الزروالي من مدينة فاس المغربية والذي يتحدّر من بني زروال في ولاية وهران ".

وفي تونس التي يقول نفس المؤرخ: إن الزاوية لاقت معارضة فيها بسبب زحف المدنيّة الأوروبيّة عليها، إلا أنه يذكر زاوية العرب - التي هُجرت - وزاوية نفطه، وفي الجزائر يذكر زوايا بوسعد، ومسعاد، ومازونه.

وبالنسبة لوضع السنوسية في المغرب الأقصى فإن المؤرّخين اتفقوا على ضعف إنتشارها هناك. ونظرا لأهميّة المغرب الأقصى في تاريخ الزاوية الصوفيّة، فحريّ بنا إثبات ما نشره عنها المؤرّخون المغاربة مثل الباحث والصحفي محمّد جنبوبي الذي أصدر كتابا عنها ذكر فيه أن : المغرب هو بلد ١٠٠,٠٠٠ وليّا الذين خلّفوا جملة من المناقب والكتابات المتداولة في محيط الوليّ أو في المغرب (شمال أفريقيا) كله. والوليّ هو إنسان مميّز لكونه قادرا على قهر نفسه والقسوة على جسده حدّا لا يُطاق ولا يُحتمل. وكان لهم دورهم في تكوين الزوايا عن طريق تأسيس الكتاتيب القرآنية، وانفراد الفقهاء بطلبتهم في زوايا المساجد، "ثم تطوّر ذلك مع مرور الزمن إلى مدارس خاصة للعلوم الدينية، وتفرّع عنها مساكن للطلبة والضيوف وعابري السبيل، ثم أضيفت إليها رباطات لسكن الفقراء والمساكين والمحتاجين كان يقيمها الأثرياء والأمراء قربانا وصدقات جارية في سبيل الله تعالى. ثم بعد ذلك تطوّرت بعض هذه المدارس والرباطات إلى معاهد عليا وجامعات للعلوم الدينية والدنيوية، يتخرّج منها فطاحل العلماء والفقهاء والمفكرين، مثل ما هو حال جامعة القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش والزيتونة بتونس؛ في حين تحوّل بعضها الآخر إلى مراكز للعبادة والذكر والتزهّد والإنطواء على الذات، ترقبا لإشراق روحي مؤمّل، أو نسمة خيال مجنّح، أو شطحات حال مُغرية. وبعد أن ازدهرت ظاهرة الزهد والفرار من مشاق المعاناة الدنيويّة والظلم الإجتماعي والإقتصادي والسياسي، وتأثرت

بالثقافات الدينية الأجنبية الدخيلة هندية وفارسية، تحول بعضها إلى مراكز لتصوّف مغال أو معتدل، وبعضها الآخر إلى نوع من المزاوجة بين طلب العلم والتصوّف".[23]

أمّا عن أشهر الزوايا المغربيّة فيفيدنا الباحث المغربي الآخر محمّد بن نجيب البهاوي عن طريقتين هما:

"الطريقة الناصرية، ويتزعمها مؤسّسها الشيخ أمحمّد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن ناصر، الفقيه المصلح الذي يؤثر عنه أنه يلتزم السنة، وهي الطريقة الأولى التي قيل إنها تأسست على مبادئ السنوسيّة المشهورة ، وبقيت طريقته حتى الآن ليس فيها طقوس ولا خرافات ولا بدع كبقية الطرق، حتى إنه كان يصلي الجمعة –على ما يذكر عنه- ولا ينصر الملوك، وإن كان لا يبخل عليهم بالدّعاء. وله بعض المؤلفات: منها "الفتاوى الناصرية". وقد عاش هذا الشيخ في القرن الـ ١٢ الهجري.

الطريقة الثانية: هي الطريقة الدرقاوية، وقد أنشئت أصلا واشتهرت على يد مولاي العربي الدرقاوي المتوفى سنة ١٢٣٩هـ وعمره نحو ٨٠ سنة، وكان يعيش في قبيلة بني زروال قريبا من مدينة فاس شمال المغرب، وله كتاب (الرسائل). وهي رسائل إلى مريديه وتلاميذه، ومهمته الأولى التربية على منهاج المتصوفين، بتربية الأميين على التقشف ولبس المرقعة، ثم انتشرت هذه الطريقة في جنوب المغرب.

والدرقاويّة طائفة يغلب على أهلها الوعظ والإرشاد وحفظ الأشعار التي تحث على التزام الإسلام والأخلاق، وما إلى ذلك، ولهم جولات في شتى البلدان التي يعرفون فيها، غير أن لهم بعض الطقوس يلتزمون بها كالذكر الجماعي والتزام نوع من الطرب عند الذكر، والتمايل والقيام إلى أن يضربوا بأرجلهم وأيديهم في حركات معروفة عندهم.[24]

---

٢٣ كتاب "الأولياء في المغرب : الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية : حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب"

٢٤ كتاب المغرب عبر التاريخ، د. إبراهيم حركات. الجزء الأول ص: ١٥٨

وكان للطريقتين سالفتي الذكر تأثير حسن في كافة العامة في البوادي وغيرها، حيث كان لالتزام أهلهما بالإسلام وحثهم الناس عليه بالغ الأثر، ثم دخلت الطريقة التيجانية مؤخرا، ونافست الطريقتين السابقتين، ولكن أهلها يغلب عليهم الانعزال عن العامة، ويحاولون جذب الخاصة كالفقهاء والأغنياء، وقد اقتنع بها كثير من هؤلاء وأولئك، وبسبب ذلك فهي لا تُعنى بالدعوة العامة للإسلام، ولكن لشيوخها والمتقدمين فيها مؤلفات تهتم بالدرجة الأولى بنشر الطريقة والدعوة إليها ونشر محاسنها".

وتشكل الزوايا التي شكلها متصوّفة العهد المريني مظهرا دينيّا واجتماعيّا زاحم فضاءات المساجد إلى الحدّ الذي دفع بعض سلاطين المغرب إلى محاربتها والتقليص من عددها لكونها كانت مدار استقطاب شعبية. ومع انتشار المذهب الوهابي بالمغرب على عهد محمد بن عبد الله والمولى سليمان تعرّضت الزوايا لحروب إبادة حقيقية ".[25]

وفي وصفه لضعف نفوذ السنوسيّة في المغرب الأقصى يذكر البروفيسور مونتيه من جامعة جنيف: "إن الطريقة لا تعدو مجموعة محدودة من التابعين اندمج معظمهم في المجتمع و كانت تضطلع بأمور الحج إلى مكة. والسنوسيون الذين لا يجدون تعاطفا من المغاربة عموما، لديهم زاوية في مراكش. و لقد قيل لي عندما كنت في المغرب إن أحد أقطاب السنوسية جاء من الجنوب (السنغال) وزار السنوسيين في وادي دراع، وأنه استقبل بحفاوة من قبل الحكومة المركزية المغربية لدواعي تتعلق بالأمور السياسية " .

و في رأينا أن من بين الأسباب أيضا، هو قوّة المؤسّسة الدينية في المغرب، وهي مؤسّسة متجذّرة وتمارس السلطة الروحية والزمنية ممثلة في السلطان الذي يلقب أيضا بأمير المؤمنين. ووفقا للتسلسل الهرمي لمنظومة الحكم في المغرب، فإن دور الطرق الصّوفيّة كان دور الوسيط بين العرش و الرعية أو بين المخزن والسيبة، كما كانت تمارس فضّ المنازعات بين القبائل و الأقوام المغربية مستخدمة طقوس (البركة) وما يتمتع به الأشراف من نفوذ معنوي لصالح السلطان. و في مثل هذه الظروف لا تتحقق للسنوسية السطوة و مطامح الحكم المطلق التي كانت تنشدها. وعلى الرّغم من التواجد القويّ للطرق الصوفيّة في المغرب الأقصى إلاّ أن هذا لم يمنع من أن يصل إليه تأثير حركة سلفيّة رائدة هي الوهّابية، فقد كانت: "أيديولوجيّة الدولة في عهد السلطان سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) الذي رحّب رسميّا بالوهّابية وطبّق تعاليمها وراسل القائم عليها بالحجاز آنذاك الأمير عبد الله بن سعود. وكان هذا الأخير قد بعث رسالة الى السلطان

٢٥ "الأولياء في المغرب" نفس المرجع.

سليمان يشرح فيها الدعوة الوهّابية ويدعوه لاعتناقها، فلقيت الرسالة اهتماما كبيرا لدى السلطان وحاشيته العلمية، كما قامت مناقشات حولها في أوساط الفقهاء بفاس. وقد كلف السلطان جماعة منهم كتابة رسالة جوابيّة حملها إلى صاحب الحجاز وفد من العلماء في موسم الحج رأسه إبن السلطان نفسه ١٨١٨ وقد عاد الوفد معجبا بإبن سعود وسلوكه الديني وتطبيقه للسنّة النبويّة، فتعزّزت بذلك الدعوة للأفكار الوهّابية بالمغرب ولو أن الوهّابية لم تكن هي الموصّل الى حركة الإصلاح التي كان سلاطين المغرب يرنون اليها لكونها: "لم تتحرّك ضمن أفق مستقبليّة ولا كانت فيها بوادر لوعي نهضوي بالمعنى الحديث للكلمة، وإنما كانت تتحرّك في دائرة القديم وضمن إشكاليّته الدينيّة والسياسية، كما كانت الوهّابيّة بالمشرق سواء بسواء ". كما أن السلطان سليمان تعاطف في الوقت نفسه مع الطرق الصوفيّة لأسباب سياسيّة، مثل الطريقة التيجانيّة التي كانت يومئذ ضد الأتراك وحكمهم، وقد استنجدت الطريقة الدرقاويّة بالسلطان عندما هوجمت من الحاكم التركي في وهران، فلمّا وقف الى صفّها بايعه أتباعها، وبذلك طغت الدرقاويّة على نفوذ التيجانيّة في القصر . " [٢٦]

وكان المؤرخون والرحّالة الأجانب الذين تجوّلوا في ليبيا قد عايشوا تلك الحقبة الزمنية من انبثاق الطريقة السنوسية، وتتبّعوا من خلال التجربة الشخصية نشاط وتحرّكات مؤسّسها وشيوخ زواياها. ورغم ما في أغلب دراساتهم من تحامل مغرض، إلاّ أنها تمثّل شهادات حيّة. وفيما يلي نورد نموذجا لما دوّنه بعض هؤلاء الشهود.

تقريرسلوش عن السنوسيّة (نقلا عن مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ١٩٠٧)

"لقد كلفت البعثة العلمية **بمراكش** المستشرق الفرنسي اليهودي المعروف **ناحوم سلوش** بمهمة البحث في عين المكان عن أصول اليهودية في شمال أفريقيا خلال العصور الوسطى، ورغب التحالف الصهيوني العالمي المشاركة في هذه الرحلة التي كُرّست لتاريخ اليهودية ألافريقية.

---

٢٦ محمّد عابد الجابري (الحركة السلفيّة والجماعات الدينيّة المعاصرة في المغرب) ص ١٩٥ بحث منشور في كتاب الحركات الإسلاميّة المعاصرة في الوطن العربي – إصدار مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت ١٩٨٧. ونلاحظ هنا أن هذا القول ينفي ما ذهب إليه المؤرّخ الذي ذكر في الصفحة السّابقة أن الزوايا تعرّضت في عهد السلطان سليمان إلى "حروب إبادة جماعيّة". ممّا دلّ على عدم إتفاق الباحثين المغاربة!

وحين وصل **سلوش** الى طرابلس يوم ١٩ يوليو ١٩٠٦ حظي بمقابلة الوالي المشير **رجب باشا** الذي حرص على فتح أبواب المدينة وإشاعة السلام في هذه الولاية الشاسعة الواقعة تحت نفوذه، ومنح **سلوش** الترخيص والتسهيلات اللازمة لزيارة بعض أقاليمها، وبذلك تسنى له أن يتجه من **طرابلس** الى **مصراته** مارا **بالخمس** **ولبده** أو **ليبتس مانيا** وواديها الذي يطلق عليه العامة في الدواخل لقب **وادي اليهود** وهو يقع في الطريق الى **مسلاته**، وبعد أن تجوّل في هذه البلدة الصغيرة والجبل القريب منها عاد الى **الخمس** عن طريق آخر، ثم واصل الرحلة الى **مصراته** عبر واحة **زليطن**، ومنها أقلع الى **بنغازي** بالبحر حيث تفقد هناك السهل البرقاوي الفسيح، مخترقا **الجبل الأخضر**، وأتيحت له الفرصة لتمضية ليلة في الزاوية السنوسية في بلدة **دريانة**. بعدها عاد الى **طرابلس** حوالي منتصف أغسطس، حيث تحوّل فورا الى جبل **غريان** الذي سره أن يكتشف فيه كهوفا **عبرية**، ثم عبر **جبل نفوسه** **وجبل يفرن** وبعد مسيرة ثلاثة أيام ممتطيا الجمل وصل الى النقطة النهائية من الرحلة، وهي **واحة الزاوية** أحد المواقع هائجة البحر في **طرابلس الغرب**.

وخلال هذه الرحلة الهامة التي ساعده خلالها جندي تركي مرافق، ارتدى **سلوش** أزياء متعددة. إذ ظهر بمظهر **ربّي** يهودي وأفندي تركي بطربوش وكذلك مواطن أوروبي عصري من موظفي الدولة. لقد تمكن **سلوش** اذن من أن يتواجد حيث تدور الأراء المختلفة والنقاش عن (موضوعات الساعة) وفي مواقع النقوش والحفريات الأثرية، خلال وأثناء التوقف في الرحلة. ولكن ماذا كان يفعل **سلوش** خلال الساعات الطويلة وهو يغذّ السير وحين يسدل الليل أستاره، وأين كان عندما تقضّ الحرارة اللاهبة المضاجع ؟ لقد كان منهمكا في التفكير في قضايا الساعة التي فرضت نفسها عليه حسب تعبيره، وقد لا يأسف قراء مجلة **العالم الاسلامي** حين يعلمون ان الذي فرض نفسه على **سلوش** هنا وبشكل مباغت كان **السنوسية**.

لقد كان الشغل الشاغل للناس لحظة وصوله الى **طرابلس** حريق سوق بنغازي وما نتج عنه من إتلاف للمتاجر من قبل الجنود الأتراك [٢٧]، وكان ضحايا هذا الحادث الشنيع جميعهم تقريبا من اليهود ومعهم بضعة رعايا فرنسيين، وقد أشارت احدى الصحف

---

٢٧ أورد بازامة في كتابه (برقة في العهد العثماني الثاني) ص ٤٤٨ أن الرحالة الفرنسي (ماثيسيول) الذي زار بنغازي آنذاك. شاهد الحادث وحسب شهادته فالحريق الذي دمّر السوق عن بكرة أبيه، حدث في ليلة المولد النبوي الشريف، ولذا فهو يعتقد جازما بأن سببه عرضي بفعل المشاعل والقناديل التي يمخر بها الأولاد شوارع المدينة وأسواقها.

الايطالية وهي **La Tribuna** في هذا الصدد الى أفعال السنوسيين، في محاولة لإلصاق مسئولية الحادث بهم. وادعت أن أحد الضباط الأتراك الذي حضر حادث التدمير، عمل ما بوسعه للحيلولة دون وقوعه، وبما أن سعر الذهب ارتفع بشدة بسبب أعمال النهب، فلا بد أن يكون أحد السنوسيين بالذات وهو اليوزباشي **حسين أفندي** ومعه بعض الشبان السنوسيين، هم الذين رفعوا سعر البيع للأتراك، غير ان الحقيقة هي أحرى بالبحث عنها بين ركام الأحداث والتعقيدات. والأمر هنا يتعلق بأمر يحمل وجهين مضادين لا تخطئهما العين. وكان هذا الأمر ذا حساسية خاصة لأنه من (موضوعات الساعة) آنذاك في **طرابلس** ألا وهو السنوسية ومن هنا جاء سبب تتبعها بما يؤدي الى اعطاء معلومات ضافية ودقيقة عنها ". ثم نشرت المجلة ما دوّنه سلوش كما يلي:

"لا أنوي على الإطلاق أن أعبّر عن الشكوى أو أتظلّم من الإجحاف الذي اكتنف مسألة **السنوسيّة** سواء ضدّها أو معها، فأصدقاؤها وأعداؤها على السواء مجمعون على التأكيد بأنها ظلّت وفيّة لبرنامجها السياسي الأساسي لأنه سرّ قوتها الذي وسم بساطتها في الحياة، وروحها الديموقراطية وعزيمتها الثابتة. وهي الخصال التي برهنت عليها لمختلف المتعاطفين معها ولأصدقائها بالذات، بل وحتى بالنسبة لغير المسلمين. إذ ليس لليهود أي سبب للشكوى ضدّها لأن تجّارهم الذين يتنقلون منطلقين من بنغازي عوملوا من ممثليها معاملة حسنة، كما لم يسينوا قط للمسيحيين أو يقسوا عليهم، علما بأن حسن المعاملة هذا شاع في الأرياف أكثرمنه في المدن. وجميع **العبرانيين** الذين سئلوا أعربوا عن رأيهم بأن **السنوسيين** هم أناس يتصفون بالوداعة والتقشّف والاهتمام بشئونهم الخاصة. وعلى الرغم من أن السلطات التركية موافقة على أن تتصرّف **السنوسية** في الأطيان الزراعية العائدة لها، ومع أن **السنوسية** من جانبها لا تبدى اهتماما ظاهرا بالأمر، إلا أن تلك السلطات تحسب حسابهم في معالجة هذه المسألة؛ فمن الواضح والمفهوم أن **السنوسية** لا تخفي تذمّرها ازاء العيوب والمثالب التي أشاعت الفوضى أيّا كان المسبّب لها. وإن همّها الوحيد هو الرّجوع والتمسّك بأهداب المبادئ التي أرسى دعائمها الرسول، وفضائل العدالة والمساواة. إنها تسعى إلى التهذيب الخلقي ورفع الرّوح المعنويّة وممارسة حداً أقصى من البساطة في الحياة. وإنني لأذكر ان قبطانا بحريّا **(رايس)** من برقة حدّثني أثناء رحلة بالباخرة عن الإخوان **(المرابطين)** أي المقدّسين بأنهم كثر، وقد يصل عددهم إلى نصف مليون، وأنهم لا يكنّون إلا الخير للناس، وقد لقنوه القرآن في الخلاء وتحت السماء جريا على عادة المؤمنين الأوّلين، كما أنهم يعملون ما في وسعهم للتحرّر من فرض الجباية والضرائب.

بدون الإفاضة في النظريّات المذهبيّة المكوّنة لمفهوم **سيدي محمد بن علي السّنوسي** المناوئ للأتراك، ومع تركنا جانبا كلّ ما لا علاقة له **بطرابلس الغرب** فمن المؤكد أن **السّنوسيّين** استطاعوا في **بنغازي** (يقصد مجمل إقليم برقة) أن يثبّتوا مواقعهم كسادة، إذ نشرواعلى مساحة شاسعة من الأراضي شبكة مترابطة من **الزوايا** تعتبر الواحدة منها في المناطق المقامة فيها وفيما يجاورها، كأنها **(كانتون)** مركزي. وبما أنهم يعارضون كل توسّع في العمق للحياة المدنية العصريّة، فهم بذلك استطاعوا ليس فقط عزل المناطق التي يسيطرون عليها، بل عرقلوا فيها تشييّد القلاع والمدن. ولأن الكسل والخمول إعتريا الحكومة التركية، فقد تركتهم يفعلون ما يشاءون. فمنذ ثلاثين سنة مضت قلما أولت **الآستانة** إهتماما جدّيا لهذه الولاية التركيّة ونادرا ما أتت على ذكرها رغم أنها ماهولة بقبائل مشاغبة. ولم يتم التوغل داخل البلاد، فبقى الإحتلال محصورا في بعض المراكز الساحلية، ولذلك، لم يعتر القلق **السنوسيين** فمدّوا سيطرتهم دون أي اعتراض. وبصفة عامة فالتعامل بين السنوسيين والأتراك هو تعامل الأخوة الأعداء دون الوصول بالمرّة إلى نقطة الصدام أو التصارع الذي يُشغل أحد الطرفين. على العكس من ذلك فإن حسن إنتهاز الظروف لدى **سيدي المهدي** وحسن فطنته، هيّأت له التخلص من الرعاية الأبويّة التركيّة، وجعلته يسعى شخصيّا إلى مساندة هؤلاء المسيحيّين الزنادقة المندسّين [٢٨]

وبعد الإحتلال الفرنسي لتونس إرتكز التقارب بين السنوسيّين والأتراك على قاعدة العقيدة الإسلاميّة، كما أن الدبلوماسية التركية بادرت بمرونتها المعهودة وببراعة، إلى إحياء هيبتها في عيون المسلمين في أفريقيا، مع العمل بما وسعها على تحييد العامل السنوسي. وقد تطلّب منها هذا تقديم الثمن. إذ أنها عاملت السنوسيين كما عاملت الحكومة المراكشيّة الشرفاء تقريبا، ومثلما عاملت بخارى وطشقند الملالي حتى عهد قريب؛ فخوّلت للسنوسيين السلطة العامة لتشييد الزوايا الجديدة، واعتبرت ممتلكاتهم كوقف، أي إعفائها من الضربية العقاريّة. وفي نفس الوقت، وحتى تؤكد تقرّبها من السنوسية، حرصت على تربية عدد من الشبّان السنوسيّين تربية تركية على الطريقة الأوروبية، وإعدادهم لتقلد المسئوليات في السّلم الإداري والعسكري، مستهدفة إستخدامهم مستقبلا كوسطاء بين السلطات التركيّة المسئولة والزعامة السنوسيّة.

العلاقات التركية السنوسية الراهنة إذن هي أقرب إلى العلاقات الوديّة، وهي تختلف من منطقة لأخرى، ففي **صبراته** غربي مدينة **طرابلس** يكيل مفتي البلدة المديح أمام الزائر

٢٨ يقصد الكاتب نظرة السنوسيين الحقيقيّة المضمرة تجاه الأتراك.

لسلوك وديمقراطية السنوسيين. ولكن في **طرابلس** نفسها إذا ما جاء ذكر لحادث الحريق في بنغازي، فلا أحد لديه معلومات دقيقة عن السنوسيين، رغم وجود وكلاء لهم. أمّا في **بنغازي** فعلى العكس إذ تمتلئ البلاد بهم. ولهذا ينبغي التميّز بين المنطقتين.

لقد كانت **برقة** في سالف الزمان مكتظة بالسكان ومتمدّنة، بينما انحطت الآن لمستوى الصحراء. ففي كامل الاقليم لا يُحصى أكثر من مدينتين صغيرتين: وهما **بنغازي** التي يسكنها ما بين إثني عشر وخمسة عشر ألف نسمة، ثم **درنة** الأصغر منها. ويمكن هنا إضافة بلدة **المرج** في الجبل، حيث استطاعت الزاوية السنوسيّة والإدارة التركية تشييد عدد من المساكن الحضريّة. أمّا بقيّة البلاد فيقطنها الرحّل وقبائل البدو الذين يعتقدون أنهم سادة البلاد،رغم أنهم لا يسكنون إلاّ في الخيام.

ولقد انتهز السنوسيون لامبالاة وكسل الأتراك وأقاموا في ذلك الإقليم شبكة من الزوايا التي تتجمّع فيهاالقبائل. وهذه الزوايا، وهي مثل أديرة العصور الوسطى، تُعدّ المراكز الرئيسية لمن جاورها من السكان، فكل زاوية إذن تحوّلت إلى بلدة وبها قلعة محكمة، تشيّد غالبا على مساحة من الأرض تتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين كيلومتر مربع، وبعضها ما بين خمسين وستين كيلومتر مربع، وفيها تتجمّع البضائع والأدوات وأغلبها مخصّصة للزراعة. وهذه الزوايا تحمي المسافرين بمن فيهم الباعة اليهود المتجولون [٢٩] ،وبات العرب المقيمون فيها يعتبرون **السنوسيين** سادتهم ورفاقهم وحماتهم والحرّاس على ممتلكاتهم وقادتهم الروحيين؛ إنهم نظرا الى أصولهم الشريفة ومسلك التقوى والورع الذي ينهجونه، أصبحوا في الحقيقة سلطة ذات نفوذ ديني. والمسائل المتعلقة بالطقوس الروحيّة أو العقيدة تخضع هنا للأمور الزمنية في تباين تقريبا. غير أن هذا التناقض وقر في العمق علاقة حسنة من التوافق مع الأتراك. وبمرور الوقت وأمام الخطط التي رسمتها ايطاليا لتحقيق مصلحتها، والتي بدأت تؤتي نتائجها متمثلة في تدفق ملحوظ للمهاجرين منها صوب الولاية، شعرالأتراك بأن مصلحتهم تقتضي منهم التشبّث بمستعمرتهم الأفريقية الأخيرة والتحصّن داخلها.

وفي ذات الوقت، وكلما أتيح لطرابلس أن تُحكم حكما جيدا حققت الزارعة تقدما كبيرا مثلما جرى خلال السنوات الماضية. وهذا أدّى مؤخّرا بشكل تدريجي ومنتظم إلى إنشاء

---

٢٩ هذا تفنيد لإدعاءات دوفيريير ومن يهودي بالذات.

سجلات مساحة لتدوين عوائد الملكيّة الخاصّة. وتزامن ذلك مع إدخال الخدمة العسكرية الإلزاميّة التي استساغها المواطنون. ولمّا طُبّقت باجراءات في غاية الليونة، فإن الحوادث العنيفة التي وقعت في بعض المناطق أمكن احتواؤها. ولكن في منطقة بنغازي واجهت الحكومة وضعا لم تتم تسويته بسهولة؛ فالعنصر السنوسي هناك مؤمن بأنه هو المسيطر، وشعر أن الإصلاحات المالية والعسكرية ستنال من استقلاليته الدينية والسياسية. وربما كانت محاولة إدخال النظام المالي التركي في برقة قد اتصّفت بشيئ من الغلظة، كما أن الوالي كان بعيدا جدا عن هذه الأمور، ولهذا استبدّ القلق بالقبائل ومعها السنوسيّون، إذ كان إدخال النظام المالي القائم على السجلات بالنسبة لهم تعدّيا سافرا على اطماعهم في السيطرة الزمنية، ومساسا بسلطتهم وبالإحترام الذي يحظون به من قبل الأهالي، بل وانتهاكا للعقيدة الإسلامية التي يبشّرون بها ويمارسونها. وقد استغلوا أحكام الفرمان الإمبراطوري التي تعتبر كلّ الأطيان العائدة لهم وقفا؛ فسعوا إلى احتكار كامل تراب الوطن لأنفسهم. ونتيجة لتحريضهم، فالقبائل التي وضعت اليد على الأراضي بحكم الإستيلاء الجماعي، غدت تعترف بأيلولتها إلى لزوايا. ومن هنا فالأراضي الواقعة تحت سيطرة السنوسيين أصبحت بالكامل وقفا. وبما أنهم مستثنون من دفع الضريبة العقاريّة بموجب السجل الرسمي، فقد وجب على حكومة الولاية تدعيم الحق الشرعي القرآني الذي يُضفي الشرعيّة على هذه الحيازة.

إن هذه المسألة الزراعيّة التي تذكر بالمشكلة الروسية، أدّت إلى خلق توتر شديد بين الأتراك والسنوسيين، بل تفاقمت إلى درجة أن الشبان السنوسيين، الذين تدرّبوا حتى عهد قريب من قبل الأتراك ليُصبحوا موظفين محليين، ظلّوا موالين للسنوسيّة. بل ازدادت مقاومتهم شدّة. وهكذا يمكن القول إن هذه السياسة في **طرابلس الغرب** تدار الآن من قبل الرؤساء العلمانيين المستخدمين ضمن هؤلاء الموظفيين. إنه ليس صراعا بين العنصر الديني والحكومة، ولكنه تناحر عضوي. ولقد قيل إن السنوسيين ذهبوا إلى حدّ محاولة الإتصال بقوّة مسيحيّة، لمواجهة الإجراء المالي التركي. وهو أمر مشكوك فيه، كما قيل أيضا إنهم تسلّموا في السنة الماضية ما بين أربع آلاف إلى خمس آلاف بندقية على دفعتين في **توكرة** ببرقة. وقد أثار هذا لغطا واسعا،بل وسبّب غيظا في نفوس الأتراك، جعلهم لا يسعون فقط إلى فرض الضريبة العقاريّ، بل وتهديد الزوايا، متّهمين إيّاها بأنها أضحت مصارف وخزائن حديديّة لأموال القبائل.

وأمام ما قد يجرّه تفاقم الأحوال من توتّر وتعقيدات، فالحكومة المحليّة بسبب استحالة التراجع عن تولّي مسئولياتها وتحت ضغوط **الآستانة** واضحة العيان، ومدفوعة في الوقت نفسه بحمّى الحرب، قرّرت ممارسة (سياسة الأهالي) مؤمّلة أن السنوسية ستشهد في يوم سعيد وفي **بنغازي** بالذات بروز طريقة مضادّة لها تتزعّمها عُصبة (الشرفاء المحمّدية)، وبصفة خاصة من **بني زمور** الذين يبلغ عددهم ١٥٠ عضوا. وسيكون الشعار المرفوع هو إنقاذ الجماهير من تسلّط السنوسيين وتعسّفهم- وهم حماتها الحقيقيون في واقع الأمر زمن الحديث وهو عام ١٩٠٥ - أما رئيس بني زمور **الجابر** [٣٠] فمن المتوقع، وفق المخطّط، ان يلقب نفسه شيخا سنوسيّا، ويروّج لسمعته الطيّبة في كامل منطقة **الجبل والمرج** (أي بلاد الخصوم. ومن المستبعد أن تُحدث هذه الدسائس الأثر المنشود بين أنصار السنوسية، ولكن سلطات بنغازي ستجد نفسها مرغمة على إحياء الطريقة لمصلحة بني زمور ضدّ السنوسيّة. كذا كان مخطّط السياسة التركية وما جرّه مؤخّرا من نتائج. وهكذا فالأزمة لا تتضاءل أوتُستبدل، متخذة كلّ يوم نفس الطابع ولنفس السبب. والإدارة التركية تسعى إلى تطبيق (السجل)-أي التعداد- لفرض الضريبة العقارية. والسنوسية ترفض متحصّنة وراء امتيازاتها، والسلطة التركية تواصل نهجها ولكن ليس دون مقاومة. ولا مفرّ أمامها يوما ما من أن تتوقف.

وبعد مضي وقت معيّن فان السنوسيين سيُجبرون على تسييرهم من قبل رؤساء علمانيين هم غرباء على سلوك الورع والتقوى الذي اعتاده العنصر الديني. إنهم في **طرابلس** هم ممثلو هذه الفئة الأكثر نشاطا كما قيل ولعل الأقوى نفوذا بين جموع **الاخوان** هو المدعو **منصور الكيخيلي** (يقصد **الكيخيا**) أحد الموظفين القدامى والمقيم في **بنغازي**، فهو من عائلة **سنوسية** (يقصد أنها معتنقة لها)، ويُعتبر صاحب ذهنيّة متفتحة ومستقلالا مؤمنا بمفاهيم أقرب الى العصر. وأثناء الاضطرابات في **المرج** والتي قتم بها **بنو زمور**، حاولت سلطات **بنغازي** أن تتخلص من معارضته فاعتقلته وأودعته السجن هناك. ولكنه نجح بالخديعة في الافراج عنه، وأصبح مطلق السراح في بنغازي، وتمكن من أن يمارس نفوذا واسعا في جميع أنحاء الاقليم.

---

٣٠ لعلّ المقصود به جبر.

وباختصار أرادت السنوسية أن تجعل من **برقة** (بلاد السيبة)[٣١]. وتوغلت جنوبا عبر الصحراء، وتوقفت حيثما شعرت بعدم الإطمئنان.

إن السنوسية والأتراك كلاهما على أهبةالإستعداد، كأنهما جبهتان متضادتان حول تقييم مسألة الأراضي والضريبة: الثانية أخذت تطعن في الأولى، وهذه مبقية على جوّ التشاحن بينهما، تهدّد ولكن بقدرة جديّة، ومن هنا أخذت القضية تكتسي طابعا خاصا لأن السنوسيين في برقة هم في عُقر دارهم.

اذن الوضع يختلف حسب اختلاف السكان، ففي الأقاليم المأهولة بالعرب فقط، تكاد السنوسية لا تقابل خصوما ناشطين بين التجمعات الدينية الأخرى، كما هو الأمر في **مسلاته** مثلا، حيث توجد **زاوية للشرفاء**. أمّا في فزان فقد بدا انها لا تملك القوة للتغلب على الروح الفوضوية لدى القبائل، ولذا أحرزت تقدما ضئيلا، ولكن من جهة أخرى ففي المناطق حيث يتنازع العرب والبربر يبرز دورها مستفيدة من هذا الانقسام، فتنحاز مؤيدة العنصر العربي. وقد افتتحت مؤخرا زاوية جديدة في الرجبان **بجبل نفوسه**، وفي **الزنتان** وهي مركز متقدم وكان مديرها أثناء مروري بها سنوسيا، وتجدر الملاحظة أيضا انه كلما نشب صراع بين السكان والأتراك فان السنوسية تتدخّل أحيانا الى جانب **العرب** ولكن ليس الى جانب **البربر** ".

وفي القسم الثالث من التقرير يتحدث **سلوش** عن زيارة استطلاعية خاصة قام بها لزاوية سنوسية هي **زاوية دريانة** التي تبعد عن بنغازي نحو ٣٥ كيلو مترا وجاء في وصف انطباعاته: بأنه اجتاز طريقا يخترق سهلا رحبا أحمر يقع ما بين البحر والجبل الأخضر الذي ينتصب كحائط رماديّ اللون تتلألأ عليه أشعّة الشمس، وقد راعته الوحشة التي تلفّ هذه المنطقة القصيّة الخالية إلا من بضعة خيام قليلة متناثرة . "وشُيّدت الزاوية على مقربة من البحر. وهي مبنى مربّع الشكل من أحجار غبراء يلتصق به بستان غُرس في الرمال وتتخلله بضعة أشجار. ولأول وهلة تبدو الزاوية كاصطبل أكثر منها مأوى يسكنه البشر، وعلى جانبها توجد مقالع أحجار المدينة العتيقة **أدريانوبوليس** (أي دريانه الحاليّة) التي بناها أدريانو لإعادة تأهيلها بالسكان في أعقاب حرب اليهود والرومان الإغريق، وتُستعمل هذه المقالع كمقابر الآن" .ثم يفصّل زيارته للزاوية قائلا :

---

٣١ إصطلاح يطلق في المغرب الأقصى على الرعيّة أي الأهالي، ويقابلها إصطلاح (المخزن) الذي يطلق على القصر والأسرة الحاكمة.

"وبعد برهة توقفنا أمام سور الزاوية ثم ولجنا الى داخلها فرأينا جمعا من الناس يبتهلون في نحيب وعويل مروّع، كأنه صدى لشقاء الصحراء المحدقة بهم، فقد كانوا من (الإخوان)الذين يؤدّون فريضة الصلاة. وحين أردنا الدخول من البوّابة وجدناها مقفلة، وأوقفنا شاب عربي نحيف الجسم بعجرفة وأخبرنا بأن شيخ الزاوية **سيدي حسن** غير موجود [٣٢]، وكان النهار قد أشرف على المغيب، والعرب الوافدون عليها من السهل يغدون ويروحون متنادين للصلاة، بعد أن جلبوا معهم الحبوب والفواكه وطرحوها على الأرض. وتحدّث أحدهم اليّ بالفرنسية، فقد كان جزائريا من **قسنطينة**، تجوّل في **تونس** ثم في **مصر** ومن هنا أراد الرجوع الى بلاده مشيا على الأقدام، وبمروره على **الزاوية** نزل ضيفا، ويبدو أنه مقيم فيها منذ مدة غير طويلة. ثم وصل **الشيخ** ويقدّر عمره بما بين الثلاثين والخمس وثلاثين سنة، متوسّط القامة ولكنه ذو عضلات قويّة ووجه خشن ينبض بالحيوية، وكان يرافقه ضابط من أصل ألباني. ثم ما لبثت وأن انفرجت أسارير الجميع مبهوتين باللطف الجذاب الذي كان الشيخ يوزّعه عليهم، وبعد أن محضني ثقته، شرع يروي بالتفصيل أخبار بنغازي سواء المتعلقة منها بالأتراك أو بالأوروبيين، ثم استقبلني **الشيخ حسن** - الذي علم بأنني **عبري** - ببشاشة، ودعاني إلى قضاء الليل بالزاوية. واستمر مجيئ المؤمنين لأداء صلاة المغرب، وكان من بينهم عربي من الجبل أعاره الشيخ احتراما ظاهرا جعله كأنه منوّم مغناطيسيا لفرط الحفاوة والكلمات الرقيقة التي أغدقها الشيخ عليه. وبعدها أخذ العربي يحكي كل ما يعرفه عن الجبل، بما في ذلك النزاعات مع الأتراك حول الضرائب، ولبرهة انفتحت البوّابة على ساحة واسعة تتفرّع عنها ردهات مسقوفة بعضها عريض والآخر ضيّق، وفي الناحية الجنوبية ينتصب المسجد يشعّ نورا. وهكذا وبعد انقضاء يوم سفر في شهر أغسطس عبرالساحل البرقاوي، يحتاج المرء الى النوم. وعقب ضيافة (دافئة) تمثلت في خبز ساخن ومرق من الزيت ممزوج بالماء حسب الطلب، آوى الجميع الى النوم. وحدثت لمرة واحدة المناداة على الصلاة في منتصف الليل، حيث واصل **الاخوان** ترتيل شعائرهم، وما أن غادروا حتى بانت تباشير الفجر".

التنظيم القيادي للسنوسية

ذهب بعض مؤرخي السنوسية [٣٣] إلى أن هيكل التنظيم في الدعوة السنوسية تشكّل اعتمادا على التقسيم التقليدي في محافل (الذّكر) و(الأدوار)،كما في الطّرق الصوفيّة الإسلامية

٣٢ هو حسن الغماري ابن السيد أحمد الغماري أحد رفاق مؤسس الطريقة المعروفين.
٣٣ أدمز ـ ص ٢٩

الكثيرة، فبالنسبة للسنوسيّة هناك ثلاث فرق: الأولى أهل التبرّك، والثانية أهل الرضى، والثالثة أهل التجريد. وانطلاقا من ذلك ساد الإعتقاد عند هؤلاء المؤرّخين أن هذا التقسيم هو تقسيم طبقي أو مراتبي داخل المنظمة السنوسية وفقا لسلم يرتقي من المبتدئين فالمتقدّمين فالمتفوّقين، غير أن بريتشارد إستبعد أن يكون بين أهل برقة وهم طليعة من اعتنقوا الطّريقة، خاصة البدو منهم، أي تقسيم طبقي أو تمايز إجتماعي. بل نُقل عن السيد إدريس السنوسي نفيه لوجود هذا النوع من التقسيم في المنظمة السنوسية [٣٤] إلا أن ما أجمع عليه المؤرّخون هو وجود هيكل هرمي قامت عليه ويتمثل في الشكل الآتي: **المنتسبون**، وهم الذين انتموا إلى لطريقة طلبا للبركة، وقد كوّنوا الغالبية ـ **الإخوان** أو المريدون و هم من اعتنق عقيدتها وتعلّم ومارس طقوسها من تسبيح واستغفار وغير ذلك كما ورد في أورادها و ذِكرها، وهم عادة ما يكونون من المقيمين في الزاوية و العاملين فيها؛ **الخواص** ـ وهم الحلقة من الشيوخ و العلماء من غير أعضاء الأسرة السنوسية و لكنهم يشكّلون مجلس القيادة تحت إمرة رئيس الطريقة الذي يجب أن يكون من أفراد العائلة، ويطلق عليهم أيضا (الحضرة) أي اللجنة المركزيّة التي تتولى إصدار الأوامر بـسم شيخ الطريقة [٣٥] وقد حدّد آدامس عدد أعضاء مجلس القيادة الضيّق بأربعة أشخاص، كانوا كما يلي حسب مراحل الإمامة :

في عهد السنوسي الكبير: السيد عبد الله التواتي ـ السيد حامد خير المكاوى ـ السيد عمران بن بركة ـ السيد علي بن عبد المولى.

في عهد الإمام المهدي : السيد أحمد الرّيفي بدلا من السيد التواتي الذي توفيَ ـ السيد المدني بن مصطفى بدلا من السيد حامد خير المكاوى الذي توفيَ ـ السيد عمران بن بركة ـ السيد على بن عبد المولى.

في عهد السيد أحمد الشريف : السيد أحمد الريفي ـ السيد المدني بن مصطفى ـ السيد عمران بن بركة ـ السيد محمد الدفتري، بدلا من السيد على بن عبد المولى الذي توفيَ.

وحين تولى السيد إدريس زعامة الطريقة كان هؤلاء الشيوخ قد انتقلوا إلى جوار ربهم، ولم يعيّن أحد مكانهم، وبذلك انتهى وجود هذا الفريق، إذ أن تنظيم الإخوانية وهيئتها

---

٣٤ آدامز ـ نفس المصدر ص ٣٠
٣٥ سيرا ص ٥٠

القيادية دخلت مرحلة جديدة بعد استيلاء السيد إدريس على القيادة، والتي تحوّلت على يديه إلى التنظيم الزمني العصري في ظل الدولة الليبية الحديثة وهو ما سيتبدّى لنا بوضوح في سياق الفصول التالية من الكتاب.

على أن مؤرّخي السنوسية من الليبيين يوردون مجموعات المستشارين التي يختلف أعضاؤها إسما وعددا. فقد ذكر الطيب الأشهب في كتابيه (السنوسي الكبير) و(برقة العربية أمس واليوم) أن أكثر من خمسين شيخا وعالما من أصول ليبية وجزائرية وتونسية ومغربية وحجازية وسودانية، كانوا إمّا مرافقين للسنوسي الكبير في تطوافه بين البلدان العربية، أو أنهم اضطلعوا بالتدريس في جامعة الجغبوب وبقية الزوايا التي أنشأها [٣٦]. أمّا كتاب (الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية) لعبد القادر بن عبد الملك بن علي [٣٧] فيورد أسماء مجلس المستشارين للسيّد المهدي وهم: عمران بن بركه - أحمد الريفي - علي عبد المولى - فالح الظاهري - عبد الرحيم المحبوب (المغبوب) [٣٨]- محمد المدني التلمساني - محمد بن الحسن العسكري - سيف مقرّب. ومهما يكن الإختلاف في أسماء وعدد هؤلاء الخواص المقرّبين من كل من زعيم للإخوانية، فالأمر الثابت و الهام هو وجود قيادة جماعية لها يستشيرها شيخها في تسيير الأمور السياسية والاجتماعية للتنظيم، والإضطلاع بمسئوليّات (الدولة) التي أقامتها، مما يُضفي على هذا التنظيم الطابع المدني ويمنحه المضمون السياسي وإن جاء بمظهر الطريقة الدينيّة ومارس طقوسها التثقيفيّة.

وإذا ما تتبّعنا نشاط السنوسي الكبير منذ البداية ،فسنلاحظ أنه كان محاطا بطائفة من العلماء والتلاميذ الذين لزموا معيته في فترة الثلاثين سنة التي قضاها في الحجاز، متنقلا بين مكة والمدينة. وكانوا من بلدان عديدة كمصر والحجاز والسودان واليمن، وغالبيّتهم من الجزائر مسقط رأسه، والمغرب الأقصى مقرّ دراسته وكذلك من تونس. وكان أعضاء هذا الفريق بمثابة التنظيم المركزي الذي يعاون شيخ الطريقة في قيادة الحركة، وتولي مقاليد الأمور في الزوايا وألقاء الدروس فيها. وعدّد مؤرّخو السنوسية أبرز هؤلاء الأعضاء وهم:

---

٣٦ نقلا عن كتاب على محمد الصلابي (الحركة السنوسية في ليبيا) الجزء الأول - دار البيارق - الأردن - بيروت عام ١٩٩٩ الصفحات من ٩٢ – ١٠٤.

٣٧ مطبعة دار الجزائر العربية - دمشق عام ١٩٥٦ نقلا عن الصلابي - نفس المصدر الجزء الثاني ص ٢١٢

٣٨ لأنه من بنغازي فالمرجّح أن يكون المغبوب الذي يعتبر من أعيان المدينة البارزين آنذاك . ويبدو أن بعض المؤرّخين أطلقوا عليه لقب المحبوب تطيّرا.

- محمد عبد الله التواتي من توات بالجزائر، من أوائل المعاونين، وقد قُتل في الحجاز من قبل قطّاع الطرق، ودفن بزاوية بدر.
- أحمد ابو القاسم التواتي وهو أيضا من الجزائر، تولى مشيخة زوايا سيوة والزيتون وفزّان.
- علي بن عبد المولى، من تونس وتولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيلا للسنوسي الكبير.
- أحمد بن فرج الله، من طرابلس وهو والد أمّ محمد المهدي الشيخ الثاني للطريقة، وأخيه محمد الشريف، ولم يترك عقبا من الذكور.
- محمد بن الشفيع من سنّار بالسودان، كان زميلا للسنوسي الكبير في تلقي الدروس على أيدي أحمد بن أدريس الفاسي في (صبيا) باليم، تولى زاوية المدينة والتفتيش على الزوايا، وآخر منصب له كان مشيخة زاوية سرت.
- أحمد المقرحي من بادية طرابلس وعلمائها، ناقش السنوسي الكبير في مجلس والي طرابلس واعتنق مذهبه، ثم أصبح من أتباعه وتوفيّ في البيضاء ودُفن فيها.
- عمران بن بركة الفيتوري من زليطن ، كان شيخا لزاوية البيضاء ومدرّسا في معهد الجغبوب تتلمذ عليه السيد المهدي الخليفة الأول للسنوسي الكبير، وتزوّج كبرى بناته وتزوّج اخوه محمد الشريف بالثانية، والذي أنجب منها السيد أحمد الشريف الخليفة الثاني للطريقة.
- عبد الله السنّي من سنّار بالسودان، تتلمذ مع السنوسي الكبير على احمد بن أدريس الفاسي كان مدرّسا وشيخا لزاوية مزدة. قام أبناؤه بدور كبير في عمليات الجهاد وسيأتي ذكر ذلك.
- فالح الظاهري من الحجاز، كان من أوائل من التحق بالسنوسي الكبير وكان من الفقهاء المبرّزين الذين علّموا في الجغبوب، كان محلّ ثقة الزعامة السنوسية أذ أوفد منها إلى الآستانة أكثر من مرّة مندوبا عنها للسلطان، وكان ضليعا حتى أنه درّس الدعوة السنوسية في (الهند والسند)، وله تصانيف لم تطب. منها: (انجح المساعي) و (حسن الوفا لأخوان الصفا) وغيرهما.
- عبد الرحيم المغبوب من بنغازي، كان مفتشا على الزوايا وشيخا لزاوية بنغازي ومبعوثا للسنوسي الكبير ومن بعده لأبنه المهدي إلى السلطان في الآستانة ..
- حسين الغرياني وأصله من غريان، تولى مشيخة زاوية البيضاء ثم زاوية دفنة أو (جنزور) ببرقة.
- أحمد الرّيفي من تلمسان بالجزائر، كان ملازما للسنوسي الكبير منذ البدية، وتتلمذ عليه المهدي السنوسي وأصبح مستشاره الخاص، بل ذكرت المصادر الأيطالية أنه كان يقود الحركة قبل ان يمكن لخلافة المهدي، كما أنه أشرف على تسلّم أحمد الشريف للخلافة بعد وفاة المهدي.
- محمد الصادق من الطائف، كان من الذين التحقوا بالسنوسي الكبير في الحجاز، وقام مبعوثا عنه في حركةالجهاد في الجزائر كما اصبح شيخا لزاوية (الجريد) في تونس التي توفّي بها.

- محمد بن مصطفى المدني من تلمسان، كان مدرّسا في الجغبوب وشيخا لزاوية (تازربو).
- عمر محمد الأشهب من زليطن، تولى مشيخة زوايا درنة و (عين مارة) و (امسوس).
- مصطفى المحجوب من مصراته، تولى مشيخة زاوية الطيلمون بالجبل الأخضر.
- أحمد بن علي بوسيف من بادية طرابلس، تولى مشيخة زاوية امسوس وعين مارة، وتزوّج المهدي السنوسي أحدى بنات عائلته وهي السيدة فاطمة بوسيف الكميشي والدة السيد إدريس.
- أبو القاسم العيساوي من جبل طرابلس، كان شيخا لزاوية الرجبان، ومبعوثا لدى السلطان.
- محمد أبراهيم الغماري من مراكش، تولى مشيخة زاوية البيضاء وتنظيم مكتبةالجغبوب.
- أبراهيم الغماري من مراكش أيضا تولى مشيخة زاوية دريانة بالقرب من بنغازي.
- مصطفى الغرياني تولى مشيخة عدّة زوايا بالحجاز، التي توفي ودفن بها.
- محمد حسن البسكري، كان يقوم بأعمال سكرتارية المهدي.
- عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي، كان من أوائل رفاق السنوسي الكبير ورسوله في مهام عديدة في الحجاز والسودان وشمال افريقيا، وتولى زاوية (الجوف) بالكفرة.
- مصطفى الدردفي من مصراته، وتولى مشيخة زاوية شحّات بالجبل الأخضر.
- محمد أحمد الفيلالي من المغرب، كان من رفاق السنوسي الكبير منذ الجزائر وترأس مجلس الأخوان، ورغم ذلك دبّ الخلاف بينه وبين بقيّة الأخوان لأنه قسا عليهم، فاضطر السنوسي الكبير الى فصله بعد ان استدعاه في رحلته الأخيرة الى الحجاز.
- محمد أحمد السّكوري من المغرب، تولى زاوية الواحات (البحرية) بالقرب من سيوه ثم زاوية المرج، وكان من الموفدين الشخصيين للسنوسي الكبير، وكان من أصحاب الثروة.
- المرتضي فركاش، من قبيلة المسامير وكبار شخصيّات الجبل الأخضر ذوي الثروة والجاه.
- أبو سيف مقرب، من زعماء قبيلة البراعصة وأبرز شعراء السنوسية، ويمتاز شعره بالجزالة.
- الحسين الحلافي، من المغرب وتولى مشيخة زاوية المخيلي بالجبل الأخضر.
- المختار بن عمّور، من أشراف الجزائر وتولى مشيخة زاوية (قفنطه) بالجبل الأخضر.
- محمد حيدر الهوني، من بادية طرابلس وكان مبرّزا في تلاوة القرآن وترتيله.
- عمر جلغاف حدّوث، من زعماء البراعصة بالجبل الأخضر وكان موفدا للسنوسي الكبير.
- الفضيل بو خريص الكزّة من زعماء قبيلة العواقير وكان موفدا شخصيا للسنوسي الكبير.

كما ارتبط بالسنوسي الكبير وخلفاؤه من بعده بوجهاء وأعيان بنغازي ومن أهمّهم:

الأمين شتيوي متصرّف المدينة، ومحمد الكيخيا وأبناؤه، والشيخ على القزيري وعبد الله بن شتوان ومحمد الأسمع وسالم عثمان، وأعضاء عائلة منينة وبن زبلح.

ومن درنة: عائلة جبريل، وساسي، وستيّته

ومن شيوخ البادية علي الأطيوش، وقدربوه، وحمد اللواتي، وعبد الله سويحل أحد زعماء العبيدات[٣٩]

ويتضح من هذه القائمة أن هؤلاء الشيوخ والعلماء كانوا يمثلون أركان الحركة وأقطاب التنظيم، من خلال تسييرهم للزوايا وهي أسس التنظيم ومعاقله وأدوات انتشاره. كما يلاحظ أن أغلبهم وفد مع المؤسّس من مسقط رأسه الجزائر أو البلدان التي تلقى فيها الدروس كالمغرب والحجاز، أو من تعرّف عليهم في تطوافه كالشيوخ من أصل سوداني وتونسي كما أسلفنا. وهذا في حدّ ذاته أضفى على الحركة طابعا قوميّا متنوّعا. إلا انه ممّا يلفت النظر هنا خلوّ القيادة فيها من رمز من أصل مصري، فحتى الزوايا التي انشأها المؤسّس في مصر وعددها تسع زوايا، تولّى مشيختها شيوخ غير مصريين مثل زاوية سيوه الرئيسة وزاوية الزيتون الواقعة فيها وكان شيخهما أحمد التواتي، وزاوية الواحات البحرية، وترأسّها محمد السكوري، وزاوية الداخلة وترأسّها حسين الموهوب الدرسي. وقد يكون ذلك راجعا إلى الهجوم الذي تعرّض له مؤسّس الحركة من شيخ أكبر قلعة للشرع والفقه في العالم الأسلامي وهي جامعة الأزهر، الأمر الذي أحجم الفقهاء بسببه من الإنضمام أليها، أو أنه أرهب من يفكر في ذلك. ومن ناحية أخرى فإن تيّارات الإصلاح والتّجديد الدينيّة في مصر، نحت منحى آخر في تلك الفترة سنتعرّض لها في الصفحات القادمة.

ويصوّر الرحّالة الفرنسي (دو فيريير)هذه المرحلة من مسيرة الطريقة، فيدوّن في مذكراته ما يلي :

---

٣٩ نقلا عن(السنوسي الكبير) للطيّب الأشهب.

"منذ عام ١٨٦٠ كانت أقلّ من ثلاث عشرة سنة كفيلة بتغيير سلوك السكان وقواعد المُلكيّة: ألمزارع غدت أكثر إنتاجا، وازدادت تأثيرات الطّريقة. ففي عام ١٨٧٣ أصبح المواطنون متطرّفين بعدما كانوا متسامحين بل وغير مكترثين. وفي عام ١٨٦٩ كان بمقدور المسيحي أن يـ ـ علاقة تعارف مع المجابرة في جالو دون عائق. ولكن حين عاد الرحّالة في عام ١٨٧٩ وجد أصدقاءه القدامى غلاة متهوّرين. وفي عام ١٨٥٠ كانت ثروة زاوية مزده التي تقع على مرتفعات طرابلس، تتكوّن من ثمانية فراخ من طير الحمام، وأن مقدّم الزاوية إشتكى الى هاينريش بارت الرحّالة الإنجليزي الشهير من عدم اكتراث السكان لنصائحه. ولكن في عام ١٨٦٥ أصبح مقدّم مزده قوة يُحسب حسابها، يستضيف العائلات الغنيّة من أولاد سيدي الشيخ اللاجئين من الجزائر لأسباب سياسية "..

و حسب تقديرات(دوفييريير) كان حتى عام ١٨٨٤ يوجد في ليبيا ٦٦ زاوية منها ٣٨ في برقة و٢٨ في طرابلس، وفي بنغازي وجدت زاويتان و الثالثة بُدأ في تشييدها تحت إشراف الوكيل التجاري للسنوسية مفتاح البنّاني. و بالنسبة لتطور الطريقة في مدينة طرابلس، ذكر إنه في ١٨٧٦ وُجدت ممثليّة سنوسية عامّة يديرها محمد بن مصطفي و محمد بن طاهر، ثمّ جاء بعدهما الهادي المبارك من مراكش. أمّا إدارة الزاوية في المدينة فيمكن اعتبارها إلى حدّ أشبه بإدارة دولة. فالمسيّرون لها يُلقبون بالوزراء. وفي نفس العام كان الوزير الأوّل سيدي علي بن عبد المولى من صفاقس، والوزير الثاني كان سيدي عمران من زليطن، و مدير الدراسات الفقهيّة وأصول الدين كان سيدي محمد الشريف، شقيق سيدي المهدي، و أخيرا فإن إمام الجامع الكبير كان سيدي محمد الزروالي من فاس، و هو من نسل بني زروال في ولاية وهران. كما تمّ توحيد الطريقتين المدنيّة و السنوسيّة في المدينة. أمّا في فزان حيث كانت توجد زاوية (واو الكبير) منذ عام ١٨٥٦، فقد أشار إلى زاوية زويلة أين نجا الرحّالة المذكور ومرافقوه من محاولة إغتيال عام ١٨٦١ ، رغم جواز المرور الممنوح لهم من حاكم المقاطعة.

وقد روى إيفانز بريتشارد أنه من بين ٤٥ زاوية تابعة لقبائل برقة فقط ـ بما في ذلك النوفلية و باستثناء الكفرة – هناك ٢١ منها تقريبا أقيمت قبل عام ١٨٦٠، أو خلال حياة السنوسي الكبير و٢٢ زاوية خلال حياة السيد المهدي، وزاويتان حين تولى السيد أحمد الشريف رئاسة الطريقة. و يقول ان موقع تلك الزوايا كان ضمن المخطط الإقتصادي السياسي الذي وُضع لها، وإن أغلبها ـ ـد بالقرب أو على أنقاض الآثار اليونانية ـ الرومانيّة، وأيضا على طرق القوافل الهامة، وفي الخلجان الصغيرة على الساحل، للتحكم في تجارة المراكب الشراعيّة، وكذلك في مواقع دفاعيّة قويّة. ولقد وُزّعت لتغطذي جميع التجمّعات القبليّة الرئيسيّة. وبعبارة أخرى أينما أسّس اليونانيّون والرّومان والأتراك القرى

والبلدات، بنى السنوسيّون محافلهم (الزوايا) . وفي فترة لاحقة إستعمل الإيطاليّون نفس المواقع لإدارتهم و مستوطناتهم الإستعماريّة.

أما الدخل الرئيسي للزوايا فيأتي ـ كما هو معروف ـ من الزّكاة والتبرّعات، وكانت فريضة، وهي تتكوّن من (العشر. أما التبرّعات الأخرى كما يقول (سيرا) فكانت على هيئة صدقة تطوّعيّة مكوّنة من نوعين: (الزّيارة) وهي ما يَعد بمنحه نسبيّا كلّ منتسب ممّا في قدرته، و(الهديّة) وهي تعني هنا غرامة تكفير مرتبطة بالإلتزام الذي يتعهد به كلّ منتسب تجاه النظام العام للطريقة[٤٠]. وينقل بريتشارد عن المصادر الإيطالية القول: بأن هذه التبرّعات كانت تتبع الزوايا الممنوحة لها، ولا تتبع شيخ الطريقة أو شيوخ الزوايا، فإذا ما تبرّع البدو بقطع من الأراضي كمزارع أو مراعي، يجوز لهم الرّعي والسّقي في الأجزاء التي لا يستغلها الإخوان. أما الفائض من الريع أو الدّخل، فإنه ـ بعد تغطية مصاريف أيّة زاوية ـ يودع في صندوق مشترك، ليُنفق منه على سدّ حاجات العائلة السنوسية والأساتذة و المسئولين الإداريين الذين يتواجدون عادة في المركزين الرئيسين في كل من الجغبوب و الكفرة. ويقول بريتشارد إن هذا النظام تغيّر منذ أن تسلم السيد أحمد الشريف زعامة الطريقة، إذ أخذ يخصّص الفائض لبعض أفراد العائلة البارزين، ومن ثمّ توزّعت الأطيان والحيازات عليهم وعلى أقربائهم وأصهارهم من جانب الأم، فالسيد محمد العابد وأخوه السيد على الخطّابي وضعا اليد على ما في منطقة (برقه البيضاء) أي جنوب غربي بنغازي وكذلك فزان، لأن أصهارهما من عائلة الأشهب، والسيد صفيّ الدّين في منطقة (برقة الحمراء)، في شرقي بنغازي حتى الجبل الأخضر حيث أصهاره من عائلة المحاجيب، والسيد محمد هلال في منطقة (المارماريكا) أي طبرق حتى الحدود المصرية وأصهاره من أشراف عائلة (الطرش)، أمّا السيدان إدريس والرّضا ففي المرتفعات البرقاويّة، حيث أصهارهما من عائلة بوسيف وعائلة الغماري، بينما كانت عقارات السيد أحمد الشريف تقع في طرابلس الغرب حيث يعيش أصهاره من قبيلة الفواتير ذات النفوذ في زليتن.

ويقدّر بريتشارد هذه المِنح التي تحوّلت إلى (أوقاف) بآلاف الهكتارات (كل هكتار يعادل ١٠,٠٠٠٠ مترا مربعا). و قدّر مجموع الأراضي العائدة للطريقة بـ٢٠٠,٠٠٠٠ هكتارا، منها ٥٠,٠٠٠٠ هكتارا امتلكتها ١٤ زاوية حسب إحصاء فنّي سجّلته لجنة سنوسيّة إيطاليّة مختلطة عام ١٩١٩. أمّا دخل الزوايا فقد قدّرته السلطات الاستعمارية

٤٠ (إيطاليا والسنوسيّة) ص ٤٢

الإيطالية فيما بين سنة ١٩١٣ و سنة ١٩١٩ بـ ١٥٠,٠٠٠٠ ليرة إيطالية. و اعتمادا على ذلك يمكن تقييم إجمالي دخل جميع الزوايا بـ ٤٠٠,٠٠٠٠ ليرة أو ما يعادل ١٠,٠٠٠٠ جنيها إسترلينيا حسب سعر الصرف سنة ١٩١٩ [٤١]. أمّا الجنرال الفاشيستي جراتسياني فكان تقييمه لريع الزوايا في غضون عام ١٩٣٢ بحوالي ١٠,٠٠٠٠ ليرة نقلا عن كتابه ـ برقة الآمنة الصادر في نفس السنة.

ويذكر بريتشارد أنه اطلع على رسالة كانت بحوزة مؤرّخ السنوسية محمد الطيب الأشهب مرسلة عام ١٨٥٥ من السنوسي الكبير إلى شيوخ فرع (السديدي) من قبيلة العواقير حول بناء زاوية لهم في بلدة (مسوس) يقول لهم فيها: إنه يرسل إليهم بعض الإخوان لتشييد الزاوية ـ من بينهم بنّاءون و نجّارون ـ وما عليهم إلاّ اختيار الموقع والإشراف على العمل، و شرح لهم أن الغرض هو منفعتهم، إذ أن أولادهم سيتلقون العلم فيها، لا سيّما القرآن والشريعة، ويمكنهم إقامة الفرائض، مستشهدا في ذلك بآيات من القرآن الكريم والحديث. وفي آخر الرّسالة توجّه بالدّعاء أن يُجزي الله أولئك الذين يساهمون في إقامة الزّاوية، والذين أخذوا على عاتقهم المحافظة عليها مختتما بالقول: " إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وكلٌ يجني ما زرعت يداه ".

وهكذا كانت الزّاوية كما وصفها المؤرّخ المذكور "مدارس ومحطّات لخدمة القوافل، ومراكز تجاريّة، ومرافق إجتماعيّة وحصونا، ومحاكم، ومصارف، ومخازن تموين، ودور إيواء للفقراء، وملاجئ وأماكن لدفن الموتى، بالإضافة إلى تلقي التبريكات ودعوات المغفرة ". كما يصف المؤرّخون الإيطاليّون كيف أصبحت الزوايا بهذه الهياكل والمرافق والمنشآت المستقرّة سلطة مستقلة، وشيئا فشيئا تحوّلت إلى حكومة شكلا ومضمونا، في تنظيم حيوي ومنضبط، يكتسب بإستمرار جموع المنتسبين الأوفياء. بل كان من بين المسيّرين لأمورها فئة تُسمى (بالسفارين) وهم موظّفون يتنقلون بين المناطق المختلفة في مهام التحقق من صحّة الجباية وحصيلة المبيعات واقتناء المشتريات نيابة عن شيخ الطريقة وعائلته، وكذلك لتجميع المستخلصات وتسجيلها وإحضارها إلى المركز الرئيسي. ومن حين إلى آخر كان هؤلاء (السفارون) يكلفون بمهام دينيّة وسياسيّة. ولكن في حالات خاصة فقط، إذ أن مهمّة نقل الرسائل في هذه الشئون كتابة أو شفهيّا، كان يقوم بها

٤١ بريتشارد The Sanusi of Cyrinaica ص ٧٧ ـ ٧٩

موفدون مؤتمنون يُسمّوْن الرّقاص [٤٢]. وهم مراسلون سرّيون يجهلهم حتى مقدّم الزّاوية. و كانوا يعرّفون بأنفسهم لدى الموفدين إليهم بإشارات و تعبيرات خاصة. و يقول عنهم فابريتزو سيّرا : "إنهم أشخاص دهاة ماكرون، يندسّون عادة وسط القوافل و يضطلعون بمهامّهم مرتدين أثوابا خلاّبة، ولا يكشفون عن هويّاتهم إلا إلى الجهات الموفدين إليها في الوقت المناسب، وفي بعض الأحيان يجيئون و يغادرون في ملابس حجّاج فرادى متفرّقين، لا أحد يعلم من أين أتوا وإلى أين يتوجّهون. وكانوا جميعا يكتمون أسرارهم منغلقين كأنّهم متحصّنون في خزانة حديديّة، مستعدّين لتقبّل الموت على أن يخونوا الأمانة، وبنوع من عدم اكتراث يثير الحِنق " [٤٣].

وما أن انتقل مؤسّس الطريقة وناشر لوائها إلى جوار ربّه عام ١٨٥٩ م حتى غدت منظّمة واسعة الأرجاء ثابتة الأركان، على أهبة الإستعداد لمواجهة قوى الإستعمار والتوسّع الأوروبّي الذي بدا زحفه في اتجاه قلب القارة السوداء، مكوّنة بذلك طليعة الكفاح الوطني الليبي.

---

٤٢ نستنسب أن يكون الإسم (الركاض)، كونهم يركضون، أي يتنقلون بسرعة لأداء مهامهم، لو لم يرد ذكرهم في كتاب الدجاني " ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي " باسم (الرقاص) إعتمادا على وثيقة أصليّة

٤٣ (إيطاليا والسنوسية) لفابريتزيو سيرّا ص ٤٣